الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر 3

كليـــــة علوم الإعلام والاتصال

السنة الثانية ليسانس جذع مشترك

مطبوعة بيداغوجية في مقياس:

الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية

من إعداد الأستاذة: كريمة بوفلاقة

السنة الجامعية: 2019/2018

قائمة المحتويات:

مقدمة

المحور الأول: مفهوم الأنثروبولوجيا؛ طبيعتها و أهدافها

المحور الثاني: نشأة الأنثروبولوجيا و تطورها

المحور الثالث: أنواع الأنثروبولوجيا و فروعها

المحور الرابع:علاقة الانثروبولوجيا بالعلوم الاخرى

المحور الخامس: الأنثروبولوجيا الثقافية

المحور السادس: الأنثروبولوجيا الاجتماعية

المحور السادس: الاتجاهات و النظريات الأساسية في الأنثروبولوجيا

مقدّمـة:

رغم أن الأنثروبولوجيا بالمقارنة مع العلوم الأخرى ليست ذات جذور قديمة، إلا أّنه يمكن القول أنها استطاعت أن ترسخ جذورها في مساحات واسعة من العالم؛ من خلال التراكم المعرفي الذي ابتكره العلماء والمنظرون والباحثون، الأمر الذي جعل منها علم ذات أهمية كبيرة، لكونها قد تداخلت وتمددت في تربة علوم معرفية أخرى منها الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، للوقوف على التعقيدات التي تظهر مع تطورات الحياة البشرية، فشكّلت الأنثروبولوجيا دراسة الإنسان من ناحية تطوره البيولوجي واختلاف نظمه الاجتماعية والثقافية وانتقال السمات الوراثية والثقافية والتغييرات التي ممكن أن تطرأ عليه بمرور الوقت، ونظرًا للحاجة الكبيرة لهذا العلم وتنوع الدراسات حوله الأمر الذي استدعى اشتقاق العديد من العلوم المعرفية الأخرى منه التي تثبت أساسات العلم وتزيد من توسعه.

وتأتي هذه المطبُوعةَ الموجّهَ ة لطلبة السّنة الثانية ليسانس علوم الإعلام والاتصال بجامعة الجزائر 3 ليسَانس لتلُقي الضَوء على أبرَز الجوانَب في عِلم الأنثروبولوجيا عامة ثم الثقَافية والاجتماعية، من حيثُ المجاَل والموضُوع.

وقد راعينا في إخراج هذه المطبوعة، صياغة محتواها بطريقة ملائمة لمستوى الطلبة، وطبيعة التخصص؛ ولتحقيق ذلك، حاولنا ما أمكن، الالتزام بالمنهج المقرر، والاستفادة القصوى من أمهات الكتب، التي تضيء موضوع البحث.

المحور الأول: مفهوم الأنثروبولوجيا؛ طبيعتها و أهدافها

أصل المصطلح:

تتكون كلمة الأنثروبولوجيا ذات الأصل اليوناني من مقطعين؛ هما: Anthropos و معناها: إنسان، و Logos و معناها: علم أو دراسة. و بذلك فاللفظ اللغوي للأنثروبولوجيا يدل على "دراسة الإنسان"، أو "العلم الذي يدرس الإنسان".

في العالم العربي يستخدم المصريون مصطلح الأنثروبولوجيا، و في دول الشام مصطلح علم الإنسان، أما في دول المغرب العربي فساد لفترة طويلة مصطلح علم الأناسة.

إذن هذه المصطلحات: علم الإنسان؛ علم الأناسة؛ علم الأنثروبولوجيا كلها مصطلحات تشير إلى العلم الذي يدرس الإنسان. إلا أن العديد من الدارسين المتخصصن العرب يرون أن تسمية علم الإنسان أو علم الأناسة قد تتقاطع مع ما تهتم بدراسته بعض العلوم الأخرى التي تدرس الإنسان كعلم الطب؛ البيولوجيا؛ علم النفس؛ علم الاجتماع؛ علم السياسة ... إلخ، لهذا يفضلون تسميته باستخدام المصطلح الأجنبي "علم الأنثروبولوجيا" Anthropologie .

تعرف الانثروبولوجيا بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم و أنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، ويقوم بأعمال متعددة، و يسلك سلوكا محددا، و هو أيضا العلم الذي يدرس الحياة البدائية و الحياة الحديثة المعاصرة، و

يحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان؛ معتمدا على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل، و لذا يعتبر علم الأنثروبولوجيا علما متطورا يدرس الإنسان و سلوكه و أعماله.

و تعرف الأنثروبولوجيا أيضا بأنها العلم الذي يدرس الإنسان كمخلوق ينتمي إلى العالم الحيواني من جهة؛ و من جهة أخرى انه من بين الأنواع الحيوانية كلها الذي يصنع الثقافة و يبدعها، و المخلوق الذي يتميز عنها جميعا.

كما تعرف بصورة مختصرة و شاملة بأنها علم دراسة الإنسان طبيعيا و اجتماعيا و حضاريا. أي أن الأنثروبولوجيا لا تدرس الإنسان ككائن وحيد بذاته أو منعزل عن بني جنسه؛ إنما تدرسه بوصفه كائنا اجتماعيا بطبعه؛ يحيا في مجتمع معين؛ له ميزاته الخاصة في زمان ومكان معينين.

فالأنثروبولوجيا بوصفها دراسة الإنسان في أبعاده المختلفة؛ البيوفيزيائية و الاجتماعية و الثقافية، فهي علم شامل يجمع بين ميادين و مجالات متباينة و مختلفة عن بعضها البعض من علم التشريح؛ تاريخ تطور الجنس البشري و الجماعات العرقية؛ و دراسة النظم الاجتماعية من سياسية و اقتصادية و قرابية و دينية، و إبداع إنساني في مجالات الثقافة المتنوعة التي تشمل: التراث الفكري و أنماط القيم و أنساق الفكر و الإبداع الأدبي و الفني، و حتى العادات و

التقاليد و مظاهر السلوك في المجتمعات الإنسانية المختلفة؛ و إن كانت لا تزال تعطي عناية خاصة للمجتمعات التقليدية.[1]

و هذا يتوافق مع تعريف العالم البريطاني إدوارد تايلور[2] الذي يرى أن الأنثروبولوجيا هي "الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان"، إذ تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان و ما يتلقاه من تعليم و تنشئة اجتماعية، و بهذا المعنى تتناول الأنثروبولوجيا موضوعات مختلفة من العلوم و التخصصات التي تتعلق بالإنسان.[3]

و هو ذلك العلم الذي يعنى بدراسة الإنسان من جميع جوانبه سواء كانت فيزيقية أم ثقافية أم اجتماعية أم تاريخية أم نفسية، و هو ذلك العلم الذي يهتم بدراسة الإنسان من حيث أصله و تطوره و نموه و تنظيماته الاجتماعية و السياسية وديانته و لغته و فنونه و صناعاته.[4]

---

[1] حامد أبو زيد، الطريق إلى المعرفة، كتاب العربي، مجلة العربي، الكويت، 2001، ص 7.

[2] إدوارد بيرنت تايلور (1830 - 1917) يعتبر من أوائل رواد الأنثروبولوجيا البريطانيا، والده كان رجل أعمال و عضوا في الجمعية الإثنولوجية اللندنية، ما سمح له بالسفر و التعمق في معايشة المجتمعات المختلفة عن المجتمع البريطاني، أهم مؤلفاته : "الثقافة البدائية" (Primitive culture) سنة 1871، للمزيد أنظر: فريدريك بارث و آخرون، الأنثروبوبوجيا: حقل علمي واحد و أربعة مدارس، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادر و إيمان الوكيلي، المركز العربي للأبحاث و دراسات السياسات، قطر، ط 1، 2017، ص ص 19 -20.

[3] عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 14.

[4] السيد نبيل الحسني، الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية: دراسة إسلامية في علم الإناسة المعاصر، ط 1، العراق، 2009، ص 17.

فهو ذلك العلم الشمولي الذي استُلهم فاستمد المنهج و النظرية من هذا المنطق الشمولي في دراسة الإنسان، هذه الشمولية يستمد من خلال فروعها الأنثروبولوجية المختلفة؛ و التي تشكل جسرا بين العلوم الاجتماعية و الإنسانية و الطبيعية و الطبية و غيرها من العلوم.[5]

ومن هنا؛ يرى علماء الأنثروبولوجيا أن المهمة الأساسية لعلم الأنثروبولوجيا هي تمكيننا من فهم أنفسنا عن طريق فهم الثقافات الأخرى، فعلم الأنثروبولوجيا أكثر وعيا بالوحدة الأساسية للإنسان ، مما يسمح لنا أن نقدر و نفهم بعضنا البعض.[6]

فيقول علم الاجتماع البريطاني ماكس فيبر: "إنه لفهم مجتمع ما ينبغي أن نستخدم فهم الأهالي، و يسمي فيبر علم اجتماعه بعلم الاجتماع الفعلي و يسمي المدروس بالفاعل الاجتماعي. و يقول أيضا: " إن الباحث قد لا يستطيع أن يتجرد، و لكن أهم وسائل تجرده و موضوعيته هو أنه يسعى إلى السؤال الملح و الدائم: "لماذا يتصرف هؤلاء الناس بهذه الصورة؟ فهم قد يتصرفون في ظاهرة واحدة و ربما بشروط واحدة ولها معان و دلالات مختلفة.[7]

أهداف دراسة الأنثروبولوجيا:

استنادا إلى مفهوم الأنثروبولوجيا و طبيعتها فإن دراستها تحقق مجموعة من الأهداف يمكن حصرها في ما يلي:

---

[5] يعقوب يوسف الكندري، الثقافة و الصحة و المرض: رؤية جديدة في الأنثروبولوجيا المعاصرة، لجنة التأليف و التعريب و النشر، الشويخ، ص ص 25 - 26.

[6] السيد نبيل الحسني، مرجع سبق ذكره، ص 17.

[7] السيد الحسني، المرجع السابق، ص 18.

- وصف مظاهر الحياة البشرية و الحضارية بعد دراستها دراسة واقعية؛ و ذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة في سباق الترتيب التطوري الحضاري العام للإنسان (بدائي، زراعي، صناعي، تكنولوجي، معرفي).

- تحديد أصول التغير الذي يحدث للإنسان و أسباب هذا التغير و عملياته بدقة علمية، و ذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني و ربطه بالحاضر من خلال المقارنة.

- استنتاج المؤشرات و التوقعات لاتجاه التغير المحتمل في الظواهر الإنسانية الحضارية التي تتم دراستها و بالتالي إمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة.

المحور الثاني: نشأة الأنثروبولوجيا و تاريخها:

يجمع الباحثون في علم الأنثروبولوجيا على أّنه علم حديث العهد، إذا ما قيس ببعض العلوم الأخرى كالفلسفة و الطب و الفلك .. وغيرها، إلاّ أنّ البحث في شؤون الإنسان والمجتمعات الإنسانية قديم قدم الإنسان، مذ وعى ذاته وبدأ يسعى للتفاعل الإيجابي مع بيئته الطبيعية والاجتماعية.

لقد درج العلماء والفلاسفة في كل مكان و زمان عبر التاريخ الإنساني، على وضع نظريات عن طبيعة المجتمعات البشرية، و ما يدخل في نسيجها و أبنيتها من دين أو سلالة، و من ثّم تقسيم كلّ مجتمع إلى طبقات بحسب عاداتها و مشاعرها و مصالحها. و قد أسهمت الرحلات التجارية و الاكتشافية، و أيضاً الحروب، بدور هام في حدوث الاتصالات المختلفة بين الشعوب و المجتمعات البشرية، حيث قّربت فيما بينها و أتاحت معرفة كلّ منها بالآخر، و لا سّيما ما يتعلّق باللغة و التقاليد و القيم .. و لذلك، فمن الصعوبة بمكان، تحديد تاريخ معّين لبداية الأنثروبولوجيا[8].

أولاً-الأنثروبولوجيا في العصر القديم:

يجمع معظم علماء الاجتماع و الأنثربولوجيا، على أنّ الرحلة التي قام بها المصريون القدماء في عام 1493 قبل الميلاد إلى بلاد بونت (لصومال حالياً) بهدف التبادل التجاري،

[8] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 13.

تعدّ من أقدم الرحلات التاريخية في التعارف بين الشعوب. و قد كانت الرحلة مؤلّفة من خمسة مراكب، على متن كلّ منها 31 راكباً، و ذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة التي شملت البخور و العطور، و نتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء بأقزام إفريقيا. و تأكيداً لإقامة علاقات معهم فيما بعد؛ فقد صوّرت النقوش في معبد الدير البحري، استقبال ملك و ملكة بلاد بونت لمبعوث مصري.[9]

- عند الإغريق (اليونانيين القدماء):

يعدّ المؤرخ الإغريقي (اليوناني) هيرودوتس Herodotus ، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، و كان رحالة محبّاً للأسفار، أول من صوّر أحلام الشعوب و عاداتهم و طرح فكرة وجود تنوّع و فوارق فيما بينها، من حيث النواحي السلالية و الثقافية و اللغوية و الدينية. و لذلك يعتبره معظم مؤرّخي الأنثروبولوجيا الباحث الأنثروبولوجي الأوّل في التاريخ.[10]

فهو أول من قام بجمع معلومات وصفيّة دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبية (حوالي خمسين شعباً)، حيث تناول بالتفصيل تقاليدهم و عاداتهم، و ملامحهم الجسميّة و أصولهم السلالية[11]، إضافة إلى أنه قدّم وصفاً دقيقاً لمصر و أحوالها و شعبها، و هو قائل العبارة الشهيرة :"مصر هبة النيل".

---

[9] Mauduit, J. A, Manuel d,Athngraphie , Payot , Paris, 1960, P. 18.

[10] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 20.

[11] Darnell, Regna and editor, Reading in the History of Anthropology, University of Illinois, 1978, P. 13.

و ممّا يقوله في عادات المصريين القدماء : " إنّه في غير المصريين، يطلق كهنة الآلهة شعورهم، أمّا في مصر فيحلقونها. و يقضي العرف عند سائر الشعوب، بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم في أثناء الحداد، و لكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت، فإنّهم يطلقون شعر الرأس و اللحية "[12].

و أمّا عن المقارنة بين بعض العادات الإغريقية و الليبية، فيقول : " يبدو أنّ ثوب أثينا ودرعها و تماثيلها، نقلها الإغريق عن النساء الليبيات. غير أنّ لباس الليبيات جلدي، و أنّ عذبات دروعهن المصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين، بل هي مصنوعة من سيور جلد الحيوان. و أما ما عدا ذلك، فإنّ الثوب و الدرع في الحالتين سواء .. و من الليبيين تعلّم الإغريق كيف يقودون العربات ذات الخيول الأربعة "[13].

و استناداً إلى هذه الإسهامات المبكرة و الجادة، يعتقد الكثيرون من علماء الأنثروبولوجيا، أنّ منهج هيرودوتس في وصف ثقافات الشعوب و حياتهم و بعض نظمهم الاجتماعية، ينطوي على بعض أساسيات المنهج (الإثنوغرافي) المتعارف عليه في العصر الحاضر باسم (علم الشعوب)، و كذلك نجد أنّ أرسطو (348- 322 ق.م) كان من أوائل الذين وضعوا بعض أوليات الفكر التطّوري للكائنات الحيّة، و ذلك من خلال ملاحظاته و تأّملاته في التركيبات البيولوجية و تطّورها في الحيوان .. كما ينسب إليه أيضاً، توجيه الفكر نحو وصف نشأة

[12] محمد صقر خفاجة، هيرودت يتحّدث عن مصر، دار العلم، القاهرة، 1966، ص 120.

[13] علي فهمي خشيم ، نصوص ليبّية، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا ، 1967، 87.

الحكومات و تحليل أشكالها و أفضلها، الأمر الذي يعتبر مساهمة مبدئية و هامة في دراسة النظم الاجتماعية و الإنسانية [14] .

إنّ الدارس لأعمال الفلاسفة اليونانيين يصل إلى معلومة طريفة و ذات صلة بالفكر الأنثروبولوجي، و هي: أنّ اليونانيين أخذوا الكثير من الحضارات التي سبقتهم، حيث امتزجت فلسفتهم بالحضارة المصرية القديمة، و تمخّض عنها ما يعرف باسم " الحضارة الهيليلنية "؛ تلك الحضارة التي سادت و ازدهرت في القرون الثلاثة السابقة للميلاد.[15] و على الرغم من هذا الطابع الفلسفي الذي يناقض – إلى حدّ ما – ما تتّجه إليه الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية (علم الاجتماع) من دراسة ما هو قائم، لا ما يجب أن تكون عليه الأحوال الاجتماعية و الثقافية، فإنّ فضل الفكر الفلسفي اليوناني، و لا سيّما عند كبار فلاسفتهم، لا يمكن التقليل من شأنه أبداً .[16]

-2عند الرومان:

امتدّ عصر الإمبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون، تابع خلالها الرومان ما طرحه اليونانيون من مسائل و أفكار حول بناء المجتمعات الإنسانية و طبيعتها، و تفسير التباين و الاختلاف فيما بينها.. و لكّنهم لم يأخذوا بالنماذج المثالية / المجرّدة للحياة الإنسانية، بل وجّهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس و المحسوس. و مع ذلك، لا يجد الأنثروبولوجيون في الفكر

---

[14] حسين فهيم، قصّة الأنثروبولوجيا- فصول في تاريخ الإنسان، سلسلة عالم المعرفة 1986، الكويت ، ص 46.

[15] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 21.

[16] المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

الروماني ما يمكن اعتباره كإسهامات أصيلة في نشأة علم مستقلّ لدراسة الشعوب و ثقافاتهم، أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات[17].

و لكن، يمكن أن يستثنى من ذلك، أشعار **كاروس لوكرتيوس** التي احتوت على بعض الأفكار الاجتماعية الهامة. فقد تناول موضوعات عدّة عرضها في ستة أبواب رئيسة، ضمّنها أفكاره و نظرياته عن المادة و حركة الأجرام السماوية و شكلها، و تكوين العالم .. و خصّص الباب السادس لعرض فكرتي : التطّور و التقّدم، حيث تحدّث عن الإنسان الأول و العقد الاجتماعي، و نظامي الملكية و الحكومة، و نشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات و التقاليد و الفنون و الأزياء و الموسيقى .[18]

و قد رأى بعض الأنثروبولوجيين، أنّ **لوكرتيوس** استطاع أن يتصوّر مسار البشرية في عصور حجرية ثّم برونزية، ثّم حديدية .. بينما رأى بعضهم الآخر في فكر **لوكرتيوس**، تطابقاً مع فكر **لويس مورجان**L. Morgan– (1818-1881) أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر. و ذلك من حيث رؤية التقّدم و الانتقال من مرحلة إلى أخرى، في إطار حدوث طفرات مادية، و إن كان مردّها في النهاية إلى عمليات و ابتكارات عقلية.[19]

---

[17] المرجع السابق نفسه، ص 22.

[18] حسين فهيم، مرجع سبق ذكره، ص47

[19] Darnell, Regna and editor, Reading in the History of Anthropology, University of Illinois, 1978, P. 15.

و إذا استثنينا أشعار **لوكرتيوس** هذه و ما احتوتها من أفكار تتعلّق بطبيعة الكون و نشأة الإنسان و تطّوره، فإنّه من الصعوبة بمكان أن تنسب نشأة علم الأنثروبولوجيا إلى الفكر الروماني القديم، كما هي الحال عند الإغريقيين.

و على الرغم من أنّ الرومان اهتموا بالواقع، من حيث ربط السلالات البشرية بإمكانية التقّدم الاجتماعي و الحركة الحضارية، فقد وجدوا في أنفسهم امتيازاً و أفضلية على الشعوب الأخرى. فكان الروماني فوق غيره بحكم القانون، حتى أنّ الرومان إذا أرادوا أن يرفعوا من قدر إنسان أو شأن سلالة، أصدرت الدولة قراراً بمنح الجنسية الرومانية لأي منهما[20]، ويبدو أنّ هذا الاتجاه العنصري وجد في معظم الحضارات القديمة، و لا سّيما الحضارات الشرقية : الإغريقية و الرومانية و الصينية.[21]

3- عند الصينيين القدماء:

يعتقد بعض المؤّرخين، و لا سّيما الأنثروبولوجيين منهم، أّنه على الرغم من اهتمام الصينيين القدماء بالحضارة الرومانية و تقديرها، فلم يجدوا فيها ما ينافس حضارتهم، فقد كان الصينيون القدماء يشعرون بالأمن والهدوء داخل حدود بلادهم، و كانوا مكتفين ذاتياً من الناحية الاقتصادية المعاشية، حتى أن تجارتهم الخارجية انحصرت فقط في تبادل السلع و المنافع، من دون أن يكون لها تأثيرات ثقافية عميقة، فلم يعبأ الصينيون في القديم بالثقافات الأخرى خارج

[20] محمد مؤنس ، الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها، عالم المعرفة، عدد كانون الثاني، الكويت ، 1978، ص 43*.

[21] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص ص 22 - 23.

حدودهم، ومع ذلك لم يخلُ تاريخهم من بعض الكتابات الوصفية لعادات الجماعات البربرية؛ و التي كانت تتّسم بالازدراء و الاحتقار[22].

و هذا الاتّجاه نابع من نظرة الصينيين القدماء العنصرية، إذ كانوا يعتقدون – كالرومان – أّنهم أفضل الخلق، و أّنه لا وجود لأّية حضارة أو فضيلة خارج جنسهم، بل كانوا يرون أّنهم لا يحتاجون إلى غيرهم في شيء .. و لكي يؤكّد ملوكهم هذا الواقع، أقاموا " سور الصين العظيم " حتى لا تدّنس أرضهم بأقدام الآخرين.[23]

و لذلك، اهتّم فلاسفة الصين القدماء، بالأخلاق و شؤون المجتمعات البشرية، من خلال الاتجاهات الواقعية / العملية في دراسة أمور الحياة الإنسانية و معالجتها، لأّن معرفة الأنماط السلوكية التي ترتبط بالبناء الاجتماعي في أي مجتمع، تسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لهذا المجتمع، و الذي يكشف بالتالي عن طرائق التعامل فيما بينهم من جهة، و يحدّد أفضل الطرائق للتعامل معهم من جهة أخرى. و هذا ما يفيد الباحثين في العلوم الأخرى، و لا سّيما تلك التي تعنى بالإنسان[24].

ثانياً - الأنثربولوجيا في العصور الوسطى:

يجمع معظم المؤّرخين أن هذه العصور، تمتّد من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الميلادي؛ وقد اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى كونها ارتبطت بتدهور الحضارة

[22] Darnell, ibid.

[23] محمد مؤنس، مرجع سبق ذكره ، ص 15.

[24] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 23.

الأوربية و ارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة من جهة، و لأّنها من جهة وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الفلسفات الأوربية القديمة (اليونانية و الرومانية) و بداية عصر النهضة الأوربية (عصر التنوير) و الانطلاق إلى مجالات جديدة من استكشاف العوالم الأخرى، و إحياء التراث الفكري القديم، و إبداعات في الفنون و الآداب المختلفة، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية تزدهر، و تتّسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة[25].

-1العصور الوسطى في أوربا:

يذكر المؤّرخون أّنه في هذه العصور الوسطى (المظلمة) تدهور التفكير العقلاني، و أدينت أّية أفكار تخالف التعاليم المسيحّية، أو ما تقّدمه الكنيسة من تفسيرات للكون و الحياة الإنسانية، سواء في منشئها أو في مآلها، و لكن إلى جانب ذلك؛ كانت مراكز أخرى وّجهت منطلقات المعرفة، وحّددت طبيعة الحضارة الغربية في تلك العصور، كبلاط الملوك مثلاً، الذي كان يضّم في العادة، فئات من المثقفين كرجال الإدارة و السياسة و الشعراء.[26]

يضاف إلى ذلك التوّسع في دراسة القانون (جامعة بولونيا) و دراسة الفلسفة و اللاهوت (جامعة باريس) ممّا كانت له آثار واضحة في الحياة الأوربية العامة (السياسية و الاجتماعية و الثقافية و الدينية) مهّد بالتالي للنهضة التي شهدتها أوروبا بعد هذه العصور[27].

---

[25] عيسى الشماس، المرجع السابق، ص ص 23 - 24.

[26] حسين فهيم، مرجع سبق ذكره، ص 50.

[27] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 24.

لقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدّة للكتابة عن بعض الشعوب، إلاّ أنّها اتّسمت – غالباً - بالوصف التخيّلي، بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع؛ ومثال ذلك ما قام به الأسقف (**إسيدور)** Isidore الذي عاش ما بين (560- 636) حيث أعدّ في القرن السابع الميلادي موسوعة عن المعرفة، و أشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة و عاداتهم، و لكن بطريقة وصفية عفوية، تتّسم بالسطحية و التحيّز.

و ممّا ذكره، أنّ قرب الشعوب من أوربا أو بعدها عنها، يحدّد درجة تقدّمها، فكلّما كانت المسافة بعيدة، كان الانحطاط و التهور الحضاري مؤكّدا لتلك الشعوب، و وصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية، بأنّهم من سلالات غريبة الخَلق، حيث تبدو وجوههم بلا أنوف.

و قد ظلّت تلك المعلومات سائدة وشائعة حتى القرن الثالث عشر، حيث ظهرت موسوعة أخرى أعدّها الفرنسي **باتولو ماكوس** Batholo Macus ، و التي حظيت بشعبية كبيرة، على الرغم من أنّها لم تختلف كثيراً عن سابقتها في الاعتماد على الخيال.[28]

2- العصور الوسطى عند العرب:

و تمتدّ من منتصف القرن السابع الميلادي، و حتى نهاية القرن الرابع عشر تقريباً، حيث بدأ الإسلام في الانتشار و بدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية آنذاك بالتكوين و

[28] عيسى الشماس، مرجع سبق ذكره، ص 52.

الازدهار. و قد تضمّنت هذه الحضارة: الآداب و الأخلاق و الفلسفة و المنطق، كما كانت ذات تأثيرات خاصة في الحياة السياسية و الاجتماعية و العلاقات الدولية[29]

و قد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة و سبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم و الحكم ،و لذلك برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، كمعجم البلدان لـ**ياقوت الحموي**. و كذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل " مسالك الأمصار" لـ**ابن فضل الله العمري**، و " نهاية الأرب في فنون العرب " لـ**النويري**.

و إلى جانب اهتّمام هذه الكتب الموسوعية بشؤون العمران ، فقد تمّيزت مادتها بالاعتماد على المشاهدة و الخبرة الشخصيّة، و هذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب و الثقافات الإنسانية.

وهناك من تخصّص في وصف إقليم واحد مثل **البيروني** الذي عاش ما بين (362 – 440 هجرية) و وضع كتاباً عن الهند بعنوان " تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة "، وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية و اجتماعية و أنماط ثقافية، و اهتّم أيضاً بمقارنة تلك النظم و السلوكيات الثقافية، بمثيلاتها عند اليونان والعرب و الفرس. و

[29] Darnell, P. 259.

أبرز البيروني في هذا الكتاب، حقيقة أنّ الدين يؤدّي الدور الرئيس في تكبيل الحياة الهندية و توجيه سلوك الأفراد و الجماعات، و صياغة القيم و المعتقدات .[30]

كما كانت لرحلات **ابن بطوطة** و كتاباته خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، برزت في اهتمامه بالناس و وصف حياتهم اليومية، و طابع شخصياتهم و أنماط سلوكاتهم و قيمهم و تقاليدهم. فّمما كتبه في استحسان أفعال أهل السودان : " فمن أفعالهم قلّة الظلم، فهم أبعد الناس عنه و سلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه، و منها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها و لا المقيم من سارق و لا غاضب، و منها عدم تعرّضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان (البيض و الأجانب) و لو كان القناطير المقنطرة، و إّنما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقّه".[31]

أّما كتاب **ابن خلدون** " العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم و البربر، و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " فقد نال شهرة كبيرة و واسعة بسبب مقّدمته الرئيسة و عنوانها : " في العمران و ذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك و السلطان، و الكسب و المعاش و المصانع و العلوم، و ما لذلك من العلل و الأسباب ". و تعتبر هذه المقّدمة عملاّ أصيلاً في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال أفريقيا، و لا سّيما العادات و التقاليد و العلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كلّ ما رآه من

[30] حسين فهيم، مرجع سبق ذكره ، ص 54.

[31] أبو عبد الله ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار التراث، بيروت، 1968، ص 672.

أنظمة اجتماعية مختلفة. و قد شكّلت موضوعات هذه المقدّمة – فيما بعد –اهتماماً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية .

و من أهّم الموضوعات التي تناولها ابن خلدون في مقدّمته، و التي لها صلة باهتمامات الأنثروبولوجيا، هي تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية و الظواهر الاجتماعية. فقد ردّ ابن خلدون –استناداً إلى تلك الدعامة – اختلاف البشر في ألوانهم و أمزجتهم النفسّية و صفاتهم الجسمية و الخلَقية، إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضاً عاملاً هاماً في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية.[32] كما تناول **ابن خلدون** في مقدّمته أيضاً مسألة قيام الدول و تطّورها و أحوالها، و بلور نظرية (دورة العمران) بين البداوة و الحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية و حياة الكائن الحي، و قد سيطرت هذه الفكرة على أذهان علماء الاجتماع في الشرق و الغرب – على حدّ سواء – في العصور الوسطى .. حيث اعتبر ابن خلدون أن التطّور هو سّنة الحياة الاجتماعية، و هو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية.

يقول في ذلك : " إنّ أحوال العالم و الأمم و عوائدهم و نحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة و منهاج مستقّر، و إّنما هو اختلاف على الأيام و الأزمنة و انتقال من حال إلى حال. و كما يكون ذلك في الأشخاص و الأوقات و الأمصار، فكذلك يقع في الآفاق و الأقطار و الأزمنة و الدول.[33] فعمر الدول عند **ابن خلدون** كعمر الكائن البشري، تبدأ بالولادة و تنمو إلى الشباب و النضج و الكمال، ثّم تكبر و تهرم و تتلاشى إلى الزوال.

---

[32] عبد الرحمن ابن خلدون، مقّدمة ابن خلدون، تحقيق :علي عبد الواحد وافي، القاهرة ، 1966، ص 291.

[33] المرجع السابق، ص 252.

لقد أرسى **ابن خلدون** الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية، و دورة الحضارات التي تمرّ بها، فكان بذلك، أسبق من علماء الاجتماع في أوروبا.و لذلك، يرى بعض الكتّاب و المؤرّخين، أن **ابن خلدون** يعتبر المؤسّس الحقيقي لعلم الاجتماع، بينما يرى بعضهم الآخر، و لا سيّما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون، في مقدّمة **ابن خلدون** بعضاً من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية و مناهجها. و في أمريكا، أشار **جون هونجيمان** أيضاً في كتابه " تاريخ الفكر الأنثروبولوجي " إلى أنّ **ابن خلدون** تناول بعض الأفكار ذات الصلة بنظرية **مارفين هاريس** عن " المادية الثقافية " Cultural Materialism– و نجد أنّ **هاريس** ذاته يذكر أنّ **ابن خلدون** و من قبله **الإدريسي**، قدّما أفكاراً و مواد ساعدت في بلورة نظرية الحتمية الجغرافية، التي سادت إبّان القرن الثامن عشر[34].

و استناداً إلى ما تقدّم يمكن القول : إنّ الفلاسفة و المفكّرين العرب أسهموا بفاعلية – خلال العصور الوسطى- في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية، و لا سيّما التنوّع الثقافي الحضاري بين الشعوب، سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها، أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى. و لكن على الرغم من اعتبارها مصادر للمادة الإثنوغرافية التي درست (أسلوب الحياة في مجتمع معّين و خلال فترة زمنية محدّدة) و لا سيّما العادات و القيم و أنماط الحياة، فإنّ الأنثروبولوجيا التي تبلورت في أواخر

[34] Anderson, John, Conjuring with Ibn Khaldon: from an Anthropological point of view, Leiden, 1984, P. 112.

القرن التاسع عشر كعلم جديد معترف به، لم تكن ذات صلة تذكر بهذه الدراسات، و لا بغيرها من الدراسات (اليونانية و الرومانية) القديمة.

ثالثاً- الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية

يتّفق المؤرّخون على أنّ عصر النهضة في أوربا، بدأ في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث شرع الأوروبيون بعملية دراسة انتقائية للعلوم والمعارف الإغريقية والعربية، مترافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية، وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي، في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية، والذي تبلور وتكامل في القرن السابع عشر.

إنّ هذه التغيّرات مجتمعة أدّت إلى ترسيخ عصر النهضة أو ما سمّي (عصر التنوير) وأسهمت بالتالي في بلورة الانثربولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم يدرس تطوّر الحضارة البشرية في إطارها العام وعبر التاريخ الإنساني .الأمر الذي استلزم توافر الموضوعات الوصفية عن ثقافات الشعوب وحضاراتها، في أوروبا وخارجها، من أجل المقارنات، والتعرّف إلى أساليب حياة هذه الشعوب وترتيبها بحسب مراحل تطوريّة معيّنة، بحيث يضع ذلك أساساً لنشأة علم الأنثروبولوجيا.

لعلّ أهّم رحلة أو(رحلات) استكشافيّة مشهورة أثّرت في علم الأنثروبولوجيا، ما قام بها / **كريستوف كولومبوس** /إلى القارة الأمريكية ما بين (1492- 1502) حيث زخرت مذكّراته

عن مشاهداته واحتكاكاته بسكان العالم الجديد، بالكثير من المعلومات والمعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها، اتّسمت بالموضوعية نتيجة للمشاهدة المباشرة.

وممّا قاله في وصف سكان جزر الكاريبيان في المحيط الأطلسي : "إنّ أهل تلك الجزر كلّهم عراة تماماً، الرجال منهم والنساء، كما ولدتهم أمَّهاتهم. ومع ذلك، فثّمة بعض النساء اللواتي يغطّين عورتهنّ بورق الشجر، أو قطعة من نسيج الألياف تصنع لهذا الغرض. ليست لديهم أسلحة ومواد من الحديد أو الصلب وهم لا يصلحون لاستخدامها على أيّة حال. ولا يرجع السبب في ذلك إلى ضعف أجسادهم، وإنّما إلى كونهم خجلون ومسالمون بشكل يثير الإعجاب[35].

وكتب في وصفه لسكان أمريكا الأصليين : " إنّهم يتمتّعون بحسن الخَلق والخُلُق، وقّوة البنية الجسدية. كما أنّهم يشعرون بحرية التصرّف فيما يمتلكون، إلى حدّ أنّهم لا يتردّدون في إعطاء من يقصدهم أيّاً من ممتلكاتهم، علاوة على أنّهم يتقاسمون ما عندهم برضى وسرور[36].

وهكذا كان لرحلات كولومبس واكتشافه العالم الجديد (أمريكا) عام 1492 أثرها الكبير في إدخال أوروبا حقبة جديدة، وفي تغيير النظرة إلى الإنسان عامة، والإنسان الأوروبي خاصة، ممّا أثّر بالتالي في الفكر الأنثروبولوجي. وذلك، لأنّ هذه الاكتشافات الجغرافية / الاجتماعية وما تبعها من معرفة سكان هذه الأرض بميزاتهم وأنماط حياتهم، أظهرت بوضوح تنّوع الجنس

[35] Oswalt, Wendell , Other People , Other Customs , Holt Rinehart and Winston Inc, 1972, P. 10.

[36] Boorstin, Daniel. J, The Discoveries A History Of Man’s Search to Know his World and Himself .Vintage Books edition, 1985, P. 628.

البشري، وأثارت كثيراً من المسائل والدراسات حول قضايا النشوء والتطّور عند الكائنات البشرية .

لقد تميّز عصر النهضة الأوربية، بظاهرة كان لها تأثير في توليد نظريات جديدة عن العالم والإنسان، وهي أنّ المفكّرين اتفقوا، على الرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية.[37]

وظهر نتيجة لهذا الموقف الجديد اتّجاه لدراسة الإنسان، عرف بالمذهب الإنساني (العلمي)اقتضى دراسة الماضي من أجل فهم الحاضر، حيث اتّجهت دراسة الطبيعة الإنسانية وفهم ماهيتها وأبعادها وفق المراحل التاريخية/ التطّورية للإنسان.

وقد تبلور هذا الاتّجاه (المذهب) العلمي في الدراسات التجريبية والرياضية، التي ظهرت في أعمال بعض علماء القرن السابع عشر، من أمثال: فرانسيس بيكون-F.Becon (1561 1626) ورينيه ديكارت R.Decartes (1596-1650) وإسحاق نيوتن I. Newton (1642-1727)، وغيرهم. حيث أصبحت النظرة الجديدة للإنسان عل أّنه ظاهرة طبيعية، ويمكن دراسته من خلال البحث العلمي والمنهج التجريبي، ومعرفة القوانين التي تحكم مسيرة التطّور الإنساني والتقّدم الاجتماعي .وهذا ما أسهم في تشكيل المنطلقات النظرية للفكر الاجتماعي، وأّدى بصورة تدريجية إلى بلورة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا، خلال عصر التنوير.

[37] حسين فهيم ، مرجع سبق ذكره، ص 86.

أّما بالنسبة للدراسات الأثنوجرافية (دراسة أسلوب الحياة والعادات والتقاليد (والدراسات الأثنولوجية (دراسة مقارنة لأساليب الحياة للوصول إلى نظرية النظم الاجتماعية)، والدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، فثمةّ أعمال كثيرة قام بها العديد من العلماء.

وقد تكون محاولة الرحالة الإسباني **جوزيه آكوستا** (J. Acosta) في القرن السادس عشر، لربط ملاحظاته الشخصّية عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، المحاولة الأولى لتدوين المادة الأثنوجرافية والتنظير بشأنها، فقد افترض آكوستا أنّ الهنود الحمر كانوا قد نزحوا أصلاً من آسيا إلى أمريكا، وبذلك فسّر اختلاف حضاراتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوروبا حينذاك. وقدّم آكوستا أيضاً افتراضاً آخر حول تطّور الحضارة الإنسانية عبر مراحل معّينة، معتمداً في تصنيفه على أساس معرفة الشعوب القراءة والكتابة .

وقد وقفت أوروبا في أعلى الترتيب، وأتت بعدها الصين في المرتبة الثانية لمعرفتها الكتابة، بينما جاءت المكسيك في مرتبة أدنى من ذلك .. وصّنفت المجتمعات الأخرى بدرجات متباينة في المواقع الأدنى من هذا الترتيب[38] . وربّما شكّل هذا التصنيف أساساً استند إليه الأنثروبولوجيون فيما بعد للتمييز بين المجتمعات.

وظهر إلى جانب **آكوستا** الإسباني في الدراسة الأثنوجرافية عن الشعوب البدائية، عالم الاجتماع الفرنسي، **ميشيل دي مونتاني** M.De. Montaigne الذي عاش ما بين (1532-1592) وأجرى مقابلات مع مجموعات من السكان الأصليين في أمريكا المكتشفة، والذين أحضرهم بعض المكتشفين إلى أوربا. وبعد إن جمع منهم المعلومات عن العادات والتقاليد

[38] Darnell, p.81

السائدة في موطنهم الأصلي، خرج بالمقولة التالية : " إنّه لكي يفهم العالم فهماً جيّداً، لا بدّ من دراسة التنّوع الحضاري للمجتمعات البشرية واستقصاء أسباب هذا التنّوع " ويكون بذلك قد طرح فكرة (النسبية الأخلاقية).

وممّا قاله في هذا الإطار ما كتبه في مقاله الشهير عن " أكلة لحوم البشر " وجاء فيه" : يبدو أنّ ليس لدينا أي معيار للحقيقة والصواب، إلاّ في إطار ما نجده سائداً من آراء وعادات على الأرض التي نعيش عليها (أوروبا)، حيث نعتقد بوجود أكمل الديانات، وأكثر الطرائق فاعلية في الحصول على الأشياء.

إنّ هؤلاء الناس (أكلة لحوم البشر) فطريون / طبيعيون، مثل الفاكهة البرّية. فقد بقوا على حالهم البسيطة، كما شكّلتهم الطبيعة بطريقتها الخاصة، وتحكّمت فيهم قوانينها وسنّتهم [39].

ومن هذه الرؤية، لاقى كتابه الشهير "المقالات " الصادر عام 1579، اهتماماً كبيراً لدى مؤرخي الفكر الأوروبي عامة، والفكر الفرنسي خاصة.

ويأتي القرن الثامن عشر، ليحمل معه كتابات **جان جاك روسو** J.J. Rossow ، التي احتلّت أهمّية كبيرة لدى مؤرّخي علم الأنثروبولوجيا، وذلك بالنظر لما تضمنته في دراستها الأثنوجرافية للشعوب المكتشفة (المجتمعات البدائية) مقارنة مع المجتمعات الغربية / الأوروبية.

لقد تميّزت وجهة النظر الأنثروبولوجية عند روسّو بالتجرّد والموضوعية، حيث تجلّى ذلك في نقد بعض القيم والجوانب الثقافية في مجتمعه الفرنسي، مقابل استحسان بعض الطرائق

[39] Leach, Edmund , Social Anthropology , Fontana- Paper backs, 1982, 67.

الحياتية في المجتمعات الأخرى، وفي هذا الإطار يعدّ كتابه "العقد الاجتماعي" من البواكير الأولى للفكر الأنثروبولوجي.

وكان إلى جانب **روسّو**، البارون **دي مونتسكييه**، الذي وضع كتاب (روح القوانين) وأوضح فيه فكرة الترابط الوظيفي بين القوانين والعادات والتقاليد والبيئة، وسادت هذه الفكرة الترابطية في أعمال الأنثروبولوجين في أوائل القرن العشرين، ولا سيّما عند الأنثروبولوجيين الإنجليز، حيث انتقل اهتمام **مونتسكييه** بدراسة النظم السياسية، وتأثير المنا خ على نوعيّة الحضارة أو الثقافة – فيما بعد – إلى الكتابات الأنثروبولوجية، وشكّل مجالاً واسعاً للدراسات الأنثروبولوجية .[40]

أّما في ألمانيا، فقد تبلور الفكر في عصر التنوير، عن التفّوق العنصري والنزعة القوميّة الشوفينّية (التعصبّية)، وظهر ذلك واضحاً في كتابات كلّ من / **جورج هيجل** -1770) (1831 و**جوهان فختة** (1762-1814)، حيث جعلا الشعب الألماني، الشعب الأمثل والأنقى بين شعوب العالم.

أّما كتابات **جوهان هيردر** (1744-180) فجاءت لتعزّز فكرة التمايز بين السلالات البشرية من ناحية التركيب الجسمي، والتفاوت فيما بينها بمدى التأثّر بمظاهر المدنية، وفي تمثّلها لمقّومات الحضارة. وعلى هذا الأساس، يذهب **هيردر** إلى أنّ ثّمة سلالات بشرية خلقت للرقي، وسلالات أخرى قضي عليها بالتأّخر والانحطاط .[41]

---

[40] Darnell , p.87

[41] أحمد الخشاب، دراسات أنثروبولوجية، دار المعارف، مصر، 1970، ص 375.

لكن هذا الاتجاه العنصري في الدراسات الأنثربولوجية، واجه انتقادات كبيرة في بداية القرن العشرين، حيث برزت فكرة أنّه لا يجوز أن تتّخذ اللغة كأساس أو دليل على الانتماء إلى أصل سلالي واحد، وأنّ العلاقة بين الجنس البشري واللغة، لا يجوز أن تكون أساساً لتقسيم الشعوب الإنسانية إلى سلالات متمايزة، وقد نقض ذلك ودحضه فيما بعد الفكر الأنثروبولوجي القائم على المشاهدة الواقعية، والدراسة الميدانية المقارنة لمجتمعات الشعوب الأخرى.

وهنا يمكن القول : إنّ الأنثروبولوجيا المتحرّرة التي ظهرت اتّجاهاتها وقضاياها الإنسانية، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تجد – ولا شكّ - في الكتابات الفرنسية في عصر التنوير، جذوراً أو أصولاً نظرية لمنطلقاتها الفكرية . وتأسيساً على ما تقدّم، يمكن القول : إنّ الفكر الأنثروبولوجي الذي ساد أوروبا في عصر التنوير، وتجلّى [42] في كتابات العديد من الفلاسفة والباحثين والمؤرّخين، شكّل الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا، الذي بدأ يستقل بذاته مع بدايات القرن العشرين، ويتبلور بمنطلقاته وأهدافه في النصف الثاني من القرن ذاته .

[42] حسين فهيم، مرجع سبق ذكره، ص 101.

المحور الثالث: فروع الأنثروبولوجيا:

من اليسير الاتفاق حول الخطوط العريضة التي تحدد ميدان الدراسة الأنثروبولوجية العامة؛ ولكن من العسير الاتفاق حول الفروع الأساسية للأنثروبولوجيا. فلا يمكن أن تظل صورة تلك الفروع في بلد واحد على حالها عبر السنين. فقد تزداد فروعها وفقاً للتطورات والبحوث الميدانية والنظرية، التي تعمل حتماً على تطوير تلك الفروع أو التعديل منها. وقد تزداد عدداً، وقد تُدمج فروع في بعضها وتُستحدث أخرى، وهكذا. لذلك فعند محاولة التعرض لأقسام الأنثروبولوجيا وفروعها الرئيسية، تقدم صورة تقريبية مصحوبة ببعد زمني يلقي الضوء على تغير تلك الصورة عبر الزمن.

1. الأنثروبولوجيا البيولوجية Biological Anthropology

هو علم يدرس السجل البيولوجي للإنسان، إذ يبدأ بدراسة المكانة الحيوانية للإنسان، ويحاول اقتفاء أصل وتطور الإنسان من خلال الدراسات المقارنة، ويفحص طبيعة الاختلافات العنصرية بين الشعوب والأقوام، كما يدرس أثر العوامل البيئية المختلفة . على تشابه واختلاف أعضاء الجنس البشري . على نمو أو اضمحلال السكان. ويستعمل العالم الأنثروبولوجي الطبيعي تكتيكاً خاصاً في بحوثه وجمع معلوماته، إلا أنه يعتمد في معظم دراساته على علوم مختلفة وكثيرة، أهمها علم التشريح، وعلم الآثار، والكيمياء، وعلم الجيولوجيا، والنبات.

ويرى **الشماس** بأن علم الأحياء يتناول دراسة الكائنات الحية من وحيد الخلية الأبسط تركيباً ، وحتى كثير الخلايا والأكثر تعقيداً. ولذلك يعرف بأّنه : العلم الذي يدرس الإنسان كفرد قائم بذاته، من حيث بنية أعضائه وتطورها، ويرتبط علم الأحياء بالعلوم الطبيعية، ولا سيما علم وظائف الأعضاء والتشريح وحياة الكائن الحي. وتدخل في ذلك، نظرية التطور التي تقول بأن أجسام أجناس الكائنات الحية وأنواعها ووظائف أعضائها، تتغير باستمرار ما دامت هذه الكائنات تتكاثر وتنتج أجيالاً جديدة ، قد تكون أرقى من الأجيال السابقة، كما هي الحال عند الإنسان[43].

كما تستند هذه النظرية إلى أن الإنسان بدأ كائناً حياً بخلية واحدة، تكاثرت في إطار بنيته العامة، إلى أن انتهى إلى ما هو عليه الآن من التطور العقلي والنفسي والاجتماعي .وهذا ما دّلت عليه بقايا عظام الكائنات الحية المكتشفة في الحفريات الأثرية. فالأنثروبولوجيا، من الناحية النظرية، شديدة القرب من البيولوجيا؛ فكلاهما يدرس عملية إعادة إنتاج الحياة، وكلاهما مبني على نموذج نظري للتنوع، وكلّ في تخصصه[44].

كما تدرس الأنثروبولوجيا الفيزيقية السّمات الفيزيقية للإنسان، أي أنها دراسة الإنسان من حيث هو كائن فيزيقي طبيعي. فتدرس الإنسان العضوي في نشأته الأولى، وفي تطوره عن الرئيسيات، حتى اكتسب الصفات والخصائص الإنسانية في صورة الإنسان العاقل Homo Sapiens؛ لذلك تعالج الأنثروبولوجيا الفيزيقية، مثلاً، حجم الجمجمة، وارتفاع القامة، ولون

[43] عيسى الشماس، كرجع سبق ذكره، ص 36.

[44] المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

البشرة، ونوع نسيج الشعر، وشكل الأنف، ولون العين. كما تهتم بدراسة التغيرات العنصرية وخصائص الأجناس، وانتقال السمات الفيزيقية، وتتبع الموروثات الإنسانية. كما تدرس إلى جانب ذلك تطور الإنسان منذ مراحله وأشكاله الأولية، التي كانت تربطه بعالم القردة العليا.

ومن علماء الأنثروبولوجيا الذين قاموا بمثل هذه الابحاث نجد جوهان فردريك بلومينباج Johann Friedrich Blumenbach (1752-1840) الذي ركز في دراساته على شكل الجمجمة ولون الجلد والشعر وتكوين الجسم، واستعان في ذلك بعلم قياس الجماجم Craniometry الذي يستخدم في التحليل الوصفي للجماجم، وبعلم الأقيسة في قياس أبعاد وزوايا الجمجمة، وغيرها من أعضاء الجسم التي تعطي صورة واضحة عن بيولوجيا الإنسان القديم[45].

كذلك هناك عالم الأنثروبولوجيا جريجور ماندل Mandel الذي ركز في نظريته على حقيقة التنوع في الكائنات الحيوانية والنباتية؛ بحيث أنه حاول التأكد من افتراض وجود العلاقة بين التنوع في المملكة النباتية والمملكة الحيوانية، بمعنى أن التنوع في الكائنات الحية وشكل اجسامها مرتبط بالتنوع في طبيعة النباتات الموجودة المحيطة بالإنسان، يستقي منها طعامه وشرابه[46].

[45] عامر مصباح، المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2010، ص 53.

[46] المرجع السابق نفسه، ص 54.

ومن العلماء الذين حاولوا الربط بين السمات البيولوجية للإنسان والسيكولوجية والبيئة المناخية والجغرافية والنباتية؛ نجد ابن خلدون الذي أولى هذا الموضوع اهتماما كبيرا، وقد استعان في ذلك بالملاحظة المقارنة والدراسة الميدانية وجمع الأدلة والبيانات من الجماعات التي درسها[47].

2. الأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology

تهتم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة مجموع البناء الاجتماعي لأي جماعة أو مجتمع، بما يحويه هذا البناء من علاقات وجماعات وتنظيمات. ومن هنا تقترب العلاقة بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع. والمفهوم المحوري في الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو البناء الاجتماعي Social Structure؛ فالأنثروبولوجي الاجتماعي يفكر في المجتمع الذي هو تكوين منظم لأجزاء متعددة، وليس في الثقافة وواجبه الأول هو اكتشاف هذا النظام وتفسيره (وهو يتكون من العلاقات القائمة بين الأفراد، وهي علاقات ينظمها مجموعة من الحقوق والواجبات المعترف بها).

تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية تحت مفهوم البناء الاجتماعي . الوحدات الرئيسية المكونة لهذا البناء. والمقصود بالبناء: مجموعة العلاقات والروابط والقواعد المتصلة بقطاع أو جانب معين من جوانب حياة هذا المجتمع. فمجموعة العلاقات . مثلاً . التي تتعلق بتكوين الأسرة، ونظام القرابة، وتربية الأطفال، وشبكة العلاقات بين الزوجين وبينها وبين الأولاد،

[47] المرجع السابق نفسه، ص 57.

والعلاقات مع الأصهار...إلخ، كل ذلك يكّون ما يُسمى: نظام الأسرة أو النظام العائلي. كذلك الحال لمجموعة العلاقات والروابط والتنظيمات المتصلة بمجال كسب العيش، الإنتاج، والتوزيع، والاستهلاك، والادخار... إلخ. كل ذلك يكون تحت مُسمى: النظام الاقتصادي. أما توزيع القوة في المجتمع وقواعد استخدامها وآثار هذا الاستخدام، فيُدرس تحت اسم النظام السياسي. وهناك قطاع عريض أخير من العلاقات المتصلة بالمعايير الدينية والأخلاقية والفن والجمال هو نظام المعايير أو النظام المعياري، وإذا اقتصر على الدين والأخلاق فيُعرف باسم: النظام الديني. هذه هي أهم الوحدات الرئيسية للبناء الاجتماعي أو النظم الاجتماعية الأساسية، أي التي لا يخلو منها مجتمع، سواء عاش في الماضي، أو يمكن أن يعيش في المستقبل.

3. الأنثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology

تدرس الأنثروبولوجيا الثقافية أصول المجتمعات والثقافات الإنسانية وتاريخها، وتتبع نموها وتطورها. وتدرس بناء الثقافات البشرية وأداءها لوظائفها في كل مكان وزمان. وتهتم الأنثروبولوجيا الثقافية بالثقافة في ذاتها، سواء كانت ثقافة أسلافنا، أبناء العصر الحجري، أو ثقافة أبناء المجتمعات الحضرية المعاصرة. فجميع الثقافات تستأثر باهتمام دارسي الأنثروبولوجيا الثقافية، لأنها تسهم في الكشف عن استجابات الناس . المتمثلة في الأشكال الثقافية . للمشكلات العامة التي تطرحها دوماً البيئة الطبيعية، وفي الكشف عن محاولات الناس في الحياة والعمل معاً، وتفاعلات المجتمعات الإنسانية بعضها ببعض.

4. الأنثروبولوجيا الاقتصادية Economical Anthropology

تهتم الأنثروبولوجيا الاقتصادية بدراسة الاقتصاديات القروية أو القبلية الصغيرة. وقد تزامن ظهور الأنثروبولوجيا الاقتصادية . علماً فرعياً . مع ظهور أساليب العمل الميداني الحديثة، التي أجبرت الأنثروبولوجيين على مقارنة النظريات الاقتصادية والأنثروبولوجية بواقع الإنتاج والتوزيع، والتبادل في الاقتصاديات القبلية أو القروية الصغيرة التي درسوها.

ومن ثم ظهر هذا الفرع من علوم الأنثروبولوجيا محصلة لاهتمام علماء الأنثروبولوجيا بالنظم الاقتصادية في المجتمعات التقليدية، ومحاولة إيجاد صيغة ملائمة لتفسير الظواهر الاقتصادية في هذه المجتمعات. ويرجع الفضل في تحديد مسمى هذا الفرع إلى المؤرخ الاقتصادي جراس، في مقاله الذي عُدَّ نواة لذلك، ونُشر بعنوان: "الأنثروبولوجيا والاقتصاد". وفيه حدد نطاق اهتمام هذا الفرع بأنه الجمع بين الدراسات الأنثروبولوجية والاقتصادية عند الشعوب التقليدية. وبعد ميلاد هذا الفرع، يوضح ريموند فيرث أنه منذ حوالي العقد الرابع من القرن العشرين، بدأ الاهتمام يتزايد بهذا الفرع من الأنثروبولوجيا العامة.

5. الأنثروبولوجيا السياسية Political Anthropology

تهتم الأنثروبولوجيا السياسية بوصف الأنظمة السياسية وتحليلها على مستوى البُنى، والعمليات، أو التمثيل، والتفاعل، خاصة في المجتمعات القبلية التقليدية. ووفقاً لهذا المعنى، فإن ظهورها تخصصاً مستقل يُعد حدثاً جديداً، على الرغم من أن بداياتها ترسخت في إجراء الدراسات على المجتمعات القبلية. أما اليوم، فلا توجد حدود لميادينها البحثية، إذ تحاول الأنثروبولوجيا السياسية، كما يقول . بلانديه . أن تتجاوز التجارب والمعتقدات السياسية المحددة،

كما تنحو لتأسيس علم لدراسة السياسة ينظر إلى الإنسان بصفته إنساناً سياسية Homo Politicos. كما تبحث كذلك في تحديد خصائص التنظيمات السياسية عبر صورها وتجلياتها التاريخية والجغرافية.

6. الأنثروبولوجيا الطبية Medical Anthropology

تُعد الأنثروبولوجيا الطبية أو أنثروبولوجيا الصحة . كما يسميها بعض الدارسين . أحد الميادين الفائقة التطور في ميدان الأنثروبولوجيا، إلى حد يجعله يكاد يكتسب مرتبة العلم المستقل. ظهر هذا العلم في بداية القرن العشرين، وقد تزايد الاهتمام به نظراً لتزايد الوعي بجذور الثقافة في القضايا الصحية، مثل تطور المرض، وتوزيعه الجغرافي، والوسائل والأساليب التي تعتمد عليها المجتمعات في مواجهته، والطرق المثلى لتحسين الطب الحديث وتطويره في المجتمعات التقليدية.

وقد أوضح لويس مورجان، أهمية الثقافة في مجال الصحة والرعاية الصحية؛ فالثقافة تتحكم إلى حد كبير في الموضوعات الآتية:

أ. نمط انتشار المرض بين الناس.

ب. طريقة الناس في تفسير المرض ومعالجته.

ج. السلوك الذي يستجيب به الناس لانتشار الطب الحديث.

تؤثر الثقافة في أسلوب الرعاية الصحية، فقد تفشل برامج المساعدات الطبية بسبب الاختلافات في ثقافة مقدمي المساعدة عمن يتلقونها، ما يوجد العقبات التي تحول دون الاتصال الفّعال والتعليم والعلاج. كما تلعب الثقافة دوراً مهماً في الصحة والمرض، من خلال التغذية السليمة؛ فتحسين تغذية السكان لا يتحقق إلا من خلال تقديم مواد غذائية مقبولة ثقافياً لديهم. لذا، أخذ الاتجاه الحديث في الأنثروبولوجيا الطبية بالاتجاه الثقافي للرعاية الفيزيقية والعقلية للأفراد داخل سياقهم الاجتماعي.

8. **الأنثروبولوجيا النفسية:** Psychological Anthropology:

وهو ميدان يركز على دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية. وهو ميدان يجمع بين مفاهيم علم الأنثروبولوجيا عن الثقافة، ومفاهيم علم النفس عن الشخصية الأنثروبولوجيا عن الثقافة ومفاهيم علم النفس عن الشخصية وعلى ذلك ظهر مصطلح علمي جديد هو مصطلح الثقافة والشخصية culture and personality.

ابتدأ الباحثون في علم الأنثروبولوجيا، والباحثون في علم النفس بالتعاون في هذا المجال. إذ اهتم المحللون والأطباء النفسيون بالثقافة على اعتبار أنها عاملاً مهماً في تحديد سمات الشخصية السوية، من سمات الشخصية غير السوية.

المحور الرابع: علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى

تختلف رؤى العلماء حول عملية تصنيف الأنثروبولوجيا على كونها تابعة للعلوم الاجتماعية أو التطبيقية أو الإنسانية، ولكن في الواقع كل هذه الفروع العلمية ساهمت ودخلت على مرّ التاريخ الثقافي لشعب ما. ومن هنا نلمس أن علم الأنثروبولوجيا ارتبط بكثير من العلوم.

1. الأنثروبولوجيا والاثنولوجيا والاثنوغرافيا:

يكتسب الإنسان قدراته عن طريق التعلم والتدريب، وما يختزنه من تراث ينتقل عبر الأجيال، فتولد معارف عامة يستخدمها في علاقاته مع محيطه العام. والحضارة الإنسانية تتمايز من مجتمع إلى آخر كما أنها تتجدد بتجدد العلاقات الاجتماعية وتبدل الظروف الاقتصادية والاجتماعية. وقد أعطى هذا التنوع مادة لعلماء الأنثروبولوجيا الحضارية والإثنولوجيا ليبحثوا في أسس تكوين الحضارات وأنماط توزعها، وأسلوب انتشارها، والعوامل التي تؤدي إلى انتقالها من جيل إلى آخر، والعناصر العامة التي تشكل مضمونها والرموز التي يستخدمها الإنسان في التعبير عنها.

1. **الاثنولوجيا**: يقتصر هذا العلم على دراسة الشعوب والثقافات، وتاريخ حياة الجماعات دون النظر إلى مدى تطورها وتقدمها. فقد عرفها **بريتشارد** بأنها "علم تصنيف

الشعوب على أساس خصائصها ومميزاتها السلالية والثقافية، وتفسير توزعها في الماضي والحاضر نتيجة لتحركها واختلاطها وانتشار الثقافات".[48]

ويرى **محمد حسن غامري** أن مصطلح الإثنولوجيا يتكون من قسمين: **إثنوز** Ethnos ومعناها الشعوب، وهي كلمة يونانية قديمة، والشق الثاني كلمة **لوجي** Logy ومعناها: علم، فالمصطلح معناه علم دراسة الشعوب، وتعني الإثنواوجيا عند بعض المنظرين دراسة تصنيف الناس على أساس خصائصهم الثقافية والسلالية، إلى جانب الاهتمام بتحركات الأفراد وانتشار السمات الثقافية[49].

تستفيد الاثنولوجيا عملياً من البيانات التي تزودها بها الاثنوغرافيا، ليقوم الباحث الاثنولوجي بعد ذلك بتصنيف الحضارات في مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة، وتحليلها، واستخلاص المبادئ منها. وعلى هذا فالاثنولوجيا تهتم بتحليل معطيات المجتمع المحلي في ضوء النظريات المختلفة، وبإقامة مقارنات بين المجتمعات والأنماط الحضارية، حيث يهدف الاثنولوجي إلى الوصول إلى قوانين عامة للعادات الإنسانية ولظاهرة التغير الحضاري، وآثار الاتصال بين الحضارات المختلفة. فتقوم الإثنولوجيا بدراسة كل حضارة يمتاز بها مجتمع عن غيره، فتبحث في النظم السياسية والاقتصادية والدين والفنون الشعبية وفروع المعرفة والفنون الصناعية والفلسفات الخ، أي كل ما يتعلق بمجتمع الدراسة من مسائل حضارية.

---

[49] عامر مصباح، مرجع سبق ذكره، ص 70.

وقد خصص ابن خلدون في مقدمته قسما كبيرا في بيان الجماعات الإثنية وأصل سلالاتها، مع التركيز على العنصر العربي، إضافة إلى حديثه عن الجماعات العرقية الأخرى مثل: البربر، التركمان، الرومان، الفرس وغيرهم. لكنه يرى أن أصل الشعوب هو المجتمع البدوي، الذي يتطور إلى شعوب حضرية متمدنة فيما بعد بفعل عامل العصبية، فيقول على سبيل المثال: "... ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنه إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من البدو الذين بناحية ذلك المصر وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكنوا المصر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر، وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل له..."[50]

وعند حديثه عن العرب وأصولهم قام بتقسيمهم إلى ثلاث طبقات رئيسية هي: العرب العاربة، العرب المستعربة، العرب التابعة. وتحدث عن نمط حياة الشعوب والجماعات العربية بكل طبقاتها من مأكل ومسكن ونشاط زراعي وتجاري، كما تحدث عن ثقافتهم ووصفهم بفصاحة اللسان وقدرة على التعبير عما في نفوسهم من مشاعر وأفكار[51].

الاثنولوجيا والاثنوغرافيا: لغويا اثنو تعني جنس (شعب) وغرافيا تعني كتابة أي الكتابة عن الأجناس، وتقتصر الاثنوغرافيا في دراساتها على الناحية الوصفية للحضارات دون تقديم تفسير أو تحليل لها أي دون التعليق عليها.[52] تقوم الاثنوغرافيا بوصف أو بعرض شامل

[50] عبد الرحمان بن خلدون، مرجع سبق ذكره، 1: 131- 132.

[51] عامر مصباح، مرجع سبق ذكره، ص ص 71، 72، 73.

لمجتمع الدراسة وتقرير الوقائع كما هي وتتميز بفردية البحث حيث لا يتم البحث الاثنوغرافي إلا على المجتمعات المحلية صغيرة الحجم غالباً. لذلك يقول **عاطف وصفي** بأن الاثنوغرافيا هي الدراسة التي تقتصر على وصف ثقافة مجتمع معين؛ بينما تجمع الدراسات الاثنولوجيا بين الوصف والمقارنة للوصول إلى قوانين عامة للعادات الإنسانية، ولظاهرة التغير الثقافي وآثار الاتصال بين الثقافات المختلفة[53].

2-علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع

تكاد تكون العلاقة بين العلمين متداخلة للسبب الأول أن غالبية علماء الأنثروبولوجيا هم كذلك علماء الاجتماع والسبب الثاني هو التداخل في معظم الموضوعات المدروسة مثل الثقافة والنظم الاجتماعية والأسرة والقرابة إلا أن طريقة تناولها مختلفة. فالأنثروبولوجيا تتناول موضوع الثقافة من حيث نشأتها وعكسها لنمط التفكير لذى جيل معين، وهذا يعني تناول الثقافة في سياقها التاريخي عكس علم الاجتماع الذي يتناولها كأداة تكيف الإنسان مع المحيط الاجتماعي ووظيفة لإشباع الحاجات الإنسانية المختلفة.

أما من حيث المنهج التاريخي وطريقة الدراسات الطولية وأدوات الملاحظة والمقابلة والمقارنة كلها طرق منهجية مشتركة بين الحقلين. فمثلا ابن خلدون اعتمد بشكل أساسي على المنهج التاريخي والملاحظة في دراسة وتحليل أنساب العرب، ونشأة العمران البشري واندثاره وقيام الملك وزواله. في حين نجد ايميل دوركايم استخدم الدراسة الطولية والملاحظة في تحليل

[53] عاطف وصفي، الأنثروبولوجيا الثقافية، ص 25.

النظام الاجتماعي والظاهرة الدينية في مجتمع "أرنتا" باستراليا. وسوف يؤدي التداخل في استخدام المناهج وطرق البحث إلى تداخل في البيانات المجمعة والنتائج العملية المتوصل إليها وبالتالي يوجد حالة من الاعتماد المتبادل الوظيفي في المعرفة بين العلمين. كما يبرز التباين بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع من خلال فهم ورؤية الظواهر الاجتماعية، ففي نطاق الأنثروبولوجيا يكون التشخيص معتمدا غلى فهم الواقع كما هو حينما يفصح الأفراد فيه عن ذاتهم، استنادا إلى المشاركة والملاحظة والتفاعل والعيش والاختلاط بالأفراد ضمن الجماعة. بينما يدرس الباحث في علم الاجتماع الترابط بين الظواهر والنظم الاجتماعية، فعالم الاجتماع يتدخل في الصلة بين الإنسان والحضارة والنسق الاجتماعي من خلال بعض الافتراضات والقوالب النظرية التي تضع المتغيرات في موقعها الصحيح فلا يترك الواقع يفصح عن ذاته كما يشاء بل يضعه في قوالب نظرية محددة يبدأ بها البحث عادة.[54]

3-علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الآثار

يدرس علم الأثار Archeologie ماضي الإنسان ويبحث في الحضارات القديمة اعتمادا على الحفريات والمخلفات بأنواعها، ويرمي إلى تحديد التغير الحضاري وتتابعه على مر العصور، أما عالم التاريخ يدرس الأوقات المسجلة والحوادث الماضية المؤرخة، حيث يعتمد إلى حد كبير على الوثائق والمخطوطات وغيرها من الوسائل التي تنقل أحداث التاريخ بمنتهى الدقة والتحديد. ينصب اهتمام الأنثروبولوجي حول الآثار ليرسم صورة أشبه ما تكون إلى

الأصل المنقرض وإن لم تطابقه. وقد توصل العلماء إلى أساليب دقيقة لحفر طبقات الأرض التي يحتمل وجود بقايا حضارية فيها، كما اهتدوا الى طرائق دقيقة لفحص تلك البقايا وتسجيلها، وتحديد المواقع التي توجد فيها وتصنيفها للتعرف عليها ومقارنتها ببعضها، ويستطيع العلماء بواسطة تلك الطرائق استنتاج الكثير من المعلومات عن الحضارات القديمة وتغيراتها واتصالاتها بغيرها.

4- الأنثروبولوجيا والفن

تتجسد علاقة الأنثروبولوجيا بالفن من خلال دراستها فنون ورسوم وشعر وأدب وتراث وفلكلور الشعوب المختلفة. فهذه الدراسات توحي لنا مدى تأثير الفرح والمرح والاحتفال على النظم الاجتماعية المختلفة وعلى الثقافة والقيم التي تحملها والاعتقادات الدينية. وتحليل مثل هذه الرموز الفنية يفيد في فهم نمط التفكير لدى أصحاب هذا الفن وبالتالي طبيعة السلوك الاجتماعي...

5- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الأحياء (علم الوراثة)

قام العالم هربرت سبنسر بدراسة حول ظاهرة التطور، بحيث ماثل بين ظاهرة التطور في الكائن الحي والتطور في المجتمعات البشرية ففي نظره نمو جسم الكائن الحي من خلية إلى أن يصبح جسما مكتملا بأعضاء يؤدون وظائف خاصة، يشبه تماما نمو المجتمع الإنساني الذي

يبدأ بالأسرة، التي تأخذ في زيادة عددها إلى أن تصبح عشيرة فقبيلة فمجتمع حضري كبير كما أطلق عليه اسم " الميتروبوليتن".

الجانب الآخر من هذه العلاقة هو دراسة أحجام جمجمة الإنسان والأعضاء الأخرى التي عثر عليها في المقابر والحفريات لمعرفة الشكل الذي كان عليه الإنسان القديم والتطورات التي طرأت عليه، وكذلك الحيوانات التي استألفها وانقرضت والأخرى التي كان يصطادها للغذاء، وتصميم الألبسة والزينة.

تبحث الأنثروبولوجيا الطبيعية في الجوانب البيولوجية للإنسان والعوامل التي أثرت في تكوين السلالات البشرية، وساهمت باختلاف وتوزيع أجناس الإنسان وتعددها بين قوقازي وزنجي ومغولي رغم انتمائها الى فصيلة واحدة هي الإنسان. غير أن الاختلاف لا يكمن إلا في الصفات الخارجية فقط ويبقى التركيب الداخلي والبيولوجي (الكروموزومي) واحدا بين جميع أفراد الجنس البشري. وعلى هذا الأساس فعندما تبحث الأنثروبولوجيا الطبيعية في الاختلافات الكامنة في النوع الواحد تأخذ بعين الاعتبار العوامل البيئية والمحيط الخارجي من جهة والعوامل الداخلية المرتبطة بالوراثة من جهة أخرى.

6- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم اللغة

تعد اللغة إحدى وسائل الاتصال بين الناس، وهي الوسيلة الأساسية التي يعبر بها الفرد عن أحاسيسه وأفكاره وميوله واتجاهاته فهو يختزل بها مساحات واسعة من حالاته النفسية

والبيولوجية والاجتماعية. وقد تطورت اللغة من جيل لآخر بفعل حركتين على الأقل: حركة ذاتية ضمن منظومة اللغة فتفاعلت مفرداتها، وتطورت كلماتها وتبدلت قواعد نحوها وصرفها وحركة تفاعلها مع البيئة المادية والاجتماعية والاقتصادية.

اتجه الإنسان القديم في أول الأمر نحو الرسم للتعبير عن أشياء يرغب في الإشارة اليها فرسم الحيوان كمرحلة أولى، وقلد صوته للدلالة عليه في مرحلة ثانية ثم انتقل إلى الكلمة بسبب تزايد الحاجة الملحة لتفاعل الانسان مع الإنسان بتعبير رمزي لشئ مادي يلبي حاجاته في الاتصال الاجتماعي أولاً، وفي التعامل مع البيئة ثانياً . وانتقل الإنسان من مرحلة الرموز إلى مرحلة الكتابة في نقل التراث الحضاري وتراكم المعرفة العلمية ولهذا ارتبطت اللغة وعلمها أشد الارتباط وأوثقه بالأنثروبولوجيا نظرا للتفاعل الوثيق بين المجتمع واللغة وأسلوب التعبير وأسسه. تشكل مرحلة التعبير اللغوي أعلى مراحل نقل الأفكار والأحاسيس إلى أصحابها لتنقل بعد ذلك عبر الأجيال والمجتمعات.

7- علاقة الأنثروبولوجيا بالفلسفة

تشترك الفلسفة (محبة الحكمة) مع الأنثروبولوجيا في البحث في نظرة الإنسان إلى الكون والحياة فبينما تنظر الفلسفة بنظرة شمولية وفق المنطق وقواعد العقل، تحاول الأنثروبولوجيا أن

تأخذ نماذج وتتعامل مع الأمثلة الحية من المجتمعات لتصل إلى نظريات علمية قائمة على الملاحظة والتجربة.[55]

8- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس

يلتقي ع.ن مع ع.أن في دراسة السلوك لكنهما يختلفان في طريقة البحث وسياقه. فالأنثروبولوجيا تدرس السلوك في سياقه التاريخي وكيف أثرت عليه عوامل مختلفة في الماضي وما مدى استمرار مثل هذه التأثيرات في حاضر المجتمعات الإنسانية كتأثير الثقافة والمحيط (البيئة) على تشكيل أنماط السلوك لدى الجماعات البشرية الغابرة. ولكن نجد ع.ن يدرس هذا السلوك في سياقه الحاضر وبالتالي يعتمد على الملاحظة والمسح الاجتماعي والتجريب والمنهج الوصفي في تحليل السلوك الإنساني. كذلك يرى البعض أن ع.ن تقتصر اهتماماته على مشكلات سلوك الفرد في المقام الأول على حين الأنثروبولوجيا تميل إلى وضع تصميمات جماعية على أسس ثقافية.

9- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الفيزياء والكيمياء

تتجسد العلاقة في الاستعانة بهما في تحليل المواد التي صنعت بها الأدوات الخزفية وأدوات الأكل والإنتاج، والتحف وحتى ظاهرة تحنيط الأجسام القابلة للانحلال في العصور القديمة. وبتحليل مكونات هذه الأدوات يمكن الوصول إلى استخلاصات ونتائج حول العصور

التي مرت بها البشرية وطبيعتها وخصائصها ومعالم الانتقال من عصر لآخر كالعصر الحجري والعصر المعدني ...

المحور الخامس: الأنثروبولوجيا الثقافية

الانثروبولوجيا الثقافية هي أحد فروع علم الانثروبولوجيا، حيث أن الثقافة الإنسانية في كل الأزمنة والأمكنة هي الموضوع الرئيسي في الانثروبولوجيا الثقافية؛ فهي تهتم بدراسة الناس وعاداتهم وتقاليدهم تحت ظروف ثقافية معينة، والتطور الرئيسي لمراحل الثقافة[56].

ويرى **مالينوفسكي برونسلو** في مقاله المشهور الذي كتبه في دائرة المعارف الاجتماعية عن الثقافة أن الإنسان هو كائن له شكله الفيزيقي؛ وتراثه الاجتماعي؛ وسماته الثقافية، فإذا كانت الأنثروبولوجيا الفيزيقية تصنف الإنسان تبعا لبنائه العضوي وخصائصه الفيزيولوجية، وإذا كانت الأنثروبولوجيا السيكولوجيه تهتم بالطبيعة الإنسانية فإن الأنثروبولوجية الثقافية تدرس الإنسان ككائن يعيش في ثقافة[57].

وهناك من يرى أن الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بدراسة ثقافة أسلافنا أبناء العصر الحجري، وذلك بالكشف عن البقايا المادية لطرق الحياة، وذلك في محاولة لإعادة تركيب صور بنية الحياة لشعب معين في مرحلة زمنية ومنطقة إقليمية معينة.وهي تستعين في ذلك بعلم آثار ما قبل التاريخ. وهناك من يرى أنها تهتم بدراسة الثقافة البدائية في المجتمعات التي تتسم بالبساطة

---

[56] عامر مصباح، مرجع سبق ذكره، ص 90.

[57] المرجع السابق نفسه، ص 91.

والعزلة النسبية، كما تهتم بثقافات الجماعات المحلية المعاصرة في أروبا وأمريكا والتي تمتاز بالحضارة والرقي والتقدم[58].

تعدّ الثقافة عاملا هامًّا في تصنيف المجتمعات والأمم، وتمييز بعضها من بعض، وذلك بالنظر لما تحمله مضامين الثقافة من خصائص ودلالات عدّة ذات أبعاد فردية واجتماعية، وإنسانية أيضًا[59].

ولذلك تعدّدت تعريفات الثقافة[60] ومفهوماتها، وظهرت عشرات التعريفات ما بين عامي (1871- 1963) منها ما أخذ بالجوانب المعنوية الفكرية، أو بالجوانب الموضوعية المادية، أو بكليهما معًا، باعتبار الثقافة في إطارها العام تمثّل سيرورة المجتمع الإنساني وإبداعاته الفكريةوالعلميةّ .

وهذا التنّوع في التعريفات، حدا بعالم الاجتماع الفرنسي **إدغار موران** Edgar Morin ، أن يورد بعد ُمضّي قرن على أّول تعريف أنثروبولوجي للثقافة: " كلمة الثقافة بداهة خاطئة،

[58] محمد الحوهري، الأنثروبولوجيا: أسس نظرية وتطبيقات عملية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1999، ص ص 38-42.

[59] هشام بن سنوسي، مطبوعة موجهة لطلبة السنة الثانية ليسانس، شعبة الدراسات الأدبية تخصص :الأدب العربي، مقياس :الأنثروبولوجيا الثقافية، كلية الآداب واللغات، جامعة جيجل، 2018/2017.

[60] أحمد أبو زيد، محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص 41.

كلمة تبدو وكأّنها كلمة ثابتة، حازمة، والحال أّنها كلمة فخّ، خاوية، منّومة، ملّغمة، خائنة .. الواقع أّن مفهوم الثقافة ليس أقلّ غموضًا وتشكّكًا وتعدّدًا في علوم الإنسان منه"[61].

تعريف الثقافة :

في الدراسة النقدية التي قام بها الأستاذان **كروبير** Alfred Louis Kroeber، و **كلكهوهن** Kluckhohn Clyde عام 1951 ، لمفهوم الثقافة أورد الكاتبان ما يزيد عن المائة والخمسين تعريفا لكلمة الثقافة، بعض هذه التعريفات وصفية تهتم بتبيين المحتوى والمكونات، والبعض الآخر سيكولوجي يهتم بالجانب الرمزي وبتعلم الرموز، والبعض الآخر بنائي يهتم بالصيغ العامة وأنماط الفعل والسلوك[62].

من هذه التعريفات ما يذكره العالم البريطاني **جراهام والاس** Graham Wallas من أن الثقافة هي تراكم الأفكار والقيم والأشياء، أي أنها هي التراث الذي يكتسبه الناس من الأجيال السابقة عن طريق التعلم، وعلى ذلك فهي تتميز عن التراث البيولوجي، الذي ينتقل إلينا آليا عن طريق الجينات، وهذا الموقف الذي ينص على(تراكمية) الثقافة واكتسابها عن طريق التعلم نجده لدى عالم الاجتماع **دو روبرتي** De Roberty، الذي يذهب إلى أن الثقافة هي حصيلة الفكر والمعرفة في المجالين النظري والعملي، وعلى هذا فهي تعتبر خاصية من خواص الإنسان دون غيره، وهذا ما يذكره **مالينوفسكي** Malinowski في كثيرٍ من كتاباته[63].

---

[61] Edgar Morin : De la culturanalyse à la politique culturelle, Communications, V 14, Numéro 1, 1969 : 5 .

[62] أحمد أبو زيد، الطريق إلى المعرفة، مجلة العربي، الكويت، 2001، ص 41.

[63] هشام بن سنوسي، مرجع سبق ذكره، ص 28.

ويذكر **هوبل** Edward Adamson Hoebelأن عامل السلوك المتعلم يعتبر ركناً هاما في تعريف الثقافة، وإنه من الضروري أن نبعد كل ما هو غريزي وفطري، وكل صور السلوك المورثةّ بيولوجيا من مفهوم الثقافة، لذا فالثقافة في نظره هي حصيلة الابتكار الاجتماعي فقط، وبذلك يمكن اعتبارها بمثابة التراث الاجتماعي الذي ينتقل من جيلٍ لآخر عن طريق التعليم والتلقين، ويذكر الأستاذ **ماكيفر** Robert Morrison MacIver في مجال تعريفه للثقافة، أنها تُستخدَم للدلالة على كلّ ما صنعه أيّ شعب من الشُعوب، أو أوجده لنفسِه من مصنُوعات يدوية، ومحرمات ونظم اجتماعية سائدة، وأدوات وأسلوب التقليد، وباختصار كلّ ما صنعه الإنسان حيثما وُجد، فهي تعني مجمل التراث الاجتماعي للبشرية، أما **رويتر** Edward Byron Reuter فيعرف الثقافة بأنها: "تشمل الأدوات والمعدات، التي ظهرت وتطّورت نتيجةً لجهود الإنسان المتصّلة بإشباع حاجاته، وما يرتبط بذلك من عواطِف واتجاهات وميول معقدة، وكذلك الأبنية المنظمة وما إليها من وسائل وأساليب الضبط، التي تهدف إلى إقرار النظام الاجتماعي، وانتشار نماذج السلوك المقررة، كما يدخل فيها النظريات الخاصّة بتفسير الكون تفسيرًا فلسفياً، والتي تساعد على فهم الحياة، وتسهيل العيش بشكل أو بآخر[64].

ولعلّ هذه التعريفات، تتفق مع التعريف الذي وضعه **ادوارد تايلور** E. Tylor ويذكر فيه أنّ الثقافة أو الحضارة هي" ذلك الكلّ المركّب، الذي يشمل المعرفة والمعتقدات، والفن والقانون والأخلاق، والتقاليد وكل القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع"[65].

---

[64] أحمد أبو زيد، مرجع سبق ذكره، ص 191.

[65] فهمي سليم الغزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق، عمان، 1992، ص 177.

وتعريف تايلور يُسهم كثيرًا في تدعيم العلاقة بين الثقافة والأنثروبولوجيا، بحيث أصبح من غير الممكن النظر إلى الثقافة دون العودة إلى الأنثروبولوجيا، التي تقّدم أجود تعريف للثقافة، وهو التعريف الذي اشتهر به صاحبه في عصره، وحقق به إنجازًا معرفياً استفادت منه الأنثروبولوجيا في تعزيز مكانتها بين العلوم الاجتماعية الأخرى[66].

وضمن هذاالمفُهوم يرى **جيمس سبرادلي** James Spradley، أنّ ثقافة المجتمع تتكّون من كلّ ما يجب على الفرد أن يعرفه أو يعتقده، بحيث يعمل بطريقةٍ يقبلها أعضاء المجتمع، إنّ الثقافة ليست ظاهرةًماديةّ فحسب، أي أّنها لا تتكّون من الأشياء أو الناس أو السلوك أو الانفعالات، وإّنما هي تنظيم لهذه الأشياء فيشخصيةّ الإنسان، فهي ما يوجد في عقول الناس من أشكال لهذه الأشياء[67].

وهذا يتّفق إلى حدٍّ بعيد مع التعريف الذي يفيد بأن مصطلح الثقافة Culture في اللّغة الإنجليزية، يدلّ على معنى الحضارة Civilisation كما في اللّغة الألمانية، وله وجهان : وجهٌ ذاتي هو ثقافة العقل، ووجهٌ موضوعي هو مجموع العادات والأوضاع الاجتماعية، والآثار الفكرية والأساليب الفنيةّ والأدبية، والطرق العلمية والتقنية، وأنماط التفكير والإحساس، والقيم

---

[66] هشام بن سنوسي، مرجع سبق ذكره، ص 29.

[67] James P. Spradley, David W. McCurdy. : The Cultural Experience: Ethnography in Complex Society, Prospect Heights, Ill. : Waveland Press, 1988, c1972, P 6 – 7.

الذائعة في مجتمع معيّن، فالثقافة هي طريق حياة الناس، وكلّ ما يمل كون ويتداولون، اجتماعياً وبيولوجياً[68] .

و يَعتقُد ُمعظم علماء الأنثروبولوجيا أنّ الحضارة ما هي إلا مجردّ نوعٍ خاص من الثقافة أو بالأحرى شكلٌمعقّد أو" راقٍ "من أشكالها، ولذلك لم يعتمدوا قطّ التمييز الذي وضعه علماء الاجتماع بين الثقافة والحضارة، فمن المعروف أنّ بعض علماء الاجتماع يُميّزون بين الحضارة بوصفها : المجموع الإجمالي للوسائل البشرية، وبين الثقافة بوصفها: المجموع الإجمالي للغايات البشرية[69].

وتأسيسًا على ذلك، اعتمد كثيٌر من الباحثين في دراسة علم الأنثروبولوجيا الثقافية النفسية والاجتماعية على ثلاثة مفهوماتٍ أساسية، هي[70]:

أ- التحّزات الثقافية : وتشمل القيم والمعتقدات المشتركة بين الناس.

ب- العلاقات الاجتماعية : وتشمل العلاقاتالشخصيةّ التي تربط الناس بعضهم ببعض.

جـ- أنماط أساليب الحياة : التي تعدّ النا7تج الكلّي المركّب من التحّزات الثقافية والعلاقات الاجتماعية.

---

[68] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1971، ص 378.

[69] رالف لينتون ، الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة :عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1967، ص 143.

[70] مجموعة مؤلفين، نظرية الثقافة، ترجمة :علي الصاوي، عالم المعرفة (223) ، الكويت، 1997، ص 10.

وهذا يعني أنّ الثقافةتَهدي الإنسان إلى القيم، حيث يُمارس الاختيار، ويعبّرِ عن نفسه بالطريقة التي يرغبها، وبالتالي يتعرفَّ إلى ذاته، ويُعيد النظر في إنجازاته وسلوكاته، وعلى الرغّم من ذلك، فإنّ أية ثقافة لا تُؤلَفّ نظامًا مُغلقًا، أو قوالبَ جامدة يجبُ أن يتطابقَ معها سُلوك أعضاء المجتمع جميعًا، ويتبينّ من التأكيد على حقيقة الثقافة السيكولوجية، أنّ الثقافة بهذه الصفة، لا تستطيع أن تعمل أي شيء، لأنّها ليست سوى مجموع من سلوكات وأنماط وعادات تفكير، لدى الأشخاص الذينيؤلفّون مجتمعًا خاصًا، في وقتٍ مُحدّد ومكانٍ مُعينّ[71].

وبذلك يُمكن القول : إنّ الثقافة _ في إطارها العام _ ليست إلامفهومًا مُجردًّا يُستخدم في الدراسات الأنثروبولوجية للتعميم الثقافي، وأنّ ضرورة الثقافة لفهم الأحداث في العَالم البشري، والتنبؤ بإمكانيةِ وجودها أو وقوعِها، لا تقلُّ أهميةً عن ضرورة استخدام مبدأ الجاذبية لفهم أحداث العَالم الطبيعي وإمكانية التنبؤ بها[72].

وإذا كانت بعضالتعريفَات، قد ركّزت على الجوانبالماديةَ والمعنويةَ للثقافة، ففيالمقَابل مجموعةَ أخرى منالتعرِيفَات، التي تنظر إلىالثقَافةباعتبارِهاَ "تجرِيدا"[73]. ولقد توصَّل العالمان **كروبير** و **كلاكهوهن** إلى أنالثقَافة تجريد، ووافقهم على هذا التعريف بعض علماء الأناسة الثقَافية في أمريكا منهم **بيلز** Ralph Leon Beals و **هويجر** Harry Hoijer بأنالثقَافة هي تجريدٌ مأخوذ من السُلوك الإنساني الملاحظ حسيًّا، و لكنها ليست ذلك السُلوك، ويقولان:

---

[71] ميلفيل، ج، هرسكوفيتز : أسس الأنثروبولوجيا الثقافية، ترجمة :رباح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق، 1974، ص 65.

[72] هشام بن سنوسي، مرجع سبق ذكره، ص 31.

[73] المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

"لا يستطيع الأنثروبولوجي أن يلاحظ الثقافة مباشرة"، ويقول **كروبير** بأنه ّ يمكِن للَعالِم أن يرى الأشياء والأشخاَص وأفَعالهم وتفَاعلاتَهم، ولكن لا يمكِن لأحدٍ أن يرى الثقافة، ويوافق على هذا التعريف **رادكليف براون** Radcliffe Brown، إذ يقول ما نصّه: "لا تعبر الثقافة عن أيّ شيءٍ واقعيٍّ ملمُوس، وإنما عن تجريد"، ويبدو أن **براون** يقصد بذلك نقد علماء الأناسة الثقافية من ناحية أن موضوع عِلمهم هو مفهوم تجريدي غامض لأنّه يفضِل مفهوُم البناء الاجتماعي[74].

الاتجاهات المختلفة في تحديد مجال الثقافة :

الاتجاه الأّول ويعرف باسم الاتجاه الواقعي : ومن أقطابه **تايلور** Tylor، و **بواز** Boas ، **وديكسون** Roland Burrage Dixon، و **لِيند** Lynd Robert & Helen، وهؤلاء جميعًا ينظُرون إلى الثقافة كصِفة تُمّيز السُلوك الإنَساني، وعادةً ما يُعرفُون المفهوم بلغة اكتسَاب الَعادات والتقَاليد والقانو ..كما يدركونها من حيثُ كونها وحدةً متصلة يرتبط وجودُها سِلباً أو إيجاباً بالجماعات الاجتماعية التي تتصف بها[75].

فالرأي السائد بين هؤلاء، هو أنه ّ يلزم لوجود الثقافة وجود زمرة اجتماعية تمارسها وتتوارثها، وإذا كانت الثقافة عندهم تعني في المحل الأّول(التراث) الثقافي الملموس الذي تمثّل في مختلف الصناعات والأدوات والمعدات المادية، فهم لا يغفلون النظم والعادات وقواعد

---

[74] عاطف وصفي، الثقافة والشخصية، دار النهضة العربية، بيروت، ص ص 68-69.

[75] اسماعيل فاروق : علم الإنسان الأنثروبولوجيا، مطبعة الجمهورية، الإسكندرية، 1994، ص ص 123-124.

العرف التي توجد في المجتمع، وتوجه سلوك الناس وتصرفاتهم بل وترسمها لهم[76]، أي يجمَعون بين الجاَنب المادي والجانب المعنَوي.

الاتجاه الثاني وهو الاتجاه المثالي : ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه **أوسجود** Charles Osgood، **لينتون** R. Linton، **كلاكهوهن** Kluckhohn، **كرويبر** Kroeber، **سوروكين** Pitirim Sorokin، و **سبنجلر** Oswald Spengler، الذين ينظرون إلى الثقافة على اعتبارها أنها مجموعة من الأفكار والتصورات في عقول الأفراد أو أنها مفهومات مألوفة ومدركة[77]، أو أنها مجموعة المعايير والأنماط الذهنية التي توجه السلوك الاجتماعي، ولكنهم حيث ينبذون مظاهر السلوك المشخص، فإنهم يتصورون في الحقيقة الثقافية شيئاً مجردًا، ولذلك كان بعضهم يستعين في فهمها وتقريبها تقريباً ببعض الأفكار الفلسفية كفكرة ما فوق العضوي(أي يقصرونها على الجوانب والأفكار المثالية)[78].

وقد يكُون من الصّعب قبُول أيّ من هاتين النظريتين والاكتفاء بها، إذ على الرغّم من أن الاتجاَه الغَالب بين العلماء الثقافيين، هو إغفال الجوانب المثاَلية أو المعياَرية، وتركيز الاهتمام على دراسَة السُلوك، والتفكير المكتسَب، والواقع أن هذه الأنماطالثقَافية المشخصة تتأثر تأثًرا عميقًا بالمثلُ والتصوُّرات الذهنية، مما يحتّم على الباحث دراسة المظهرين معًا، كما أن الاقتصَار على دراسة هذه التصَورات الذهنية، والمثل والمعايير، معناه أن تصبح الأنثروبولوجيا

---

[76] أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، ص 195.

[77] اسماعيل فاروق، مرجع سبق ذكره، ص 124.

[78] هشام بن سنوسي، مرجع سبق ذكره، ص 33.

ضرباً من **ما وراء الأنثروبولوجيا**، أو **ما بعد الأنثروبولوجيا** Meta – Anthropologie والثقَافات دائماً ما تنطوي على هاذين النمطين، وفضلا عن الأنماط السُلوكية المثالية نجد الأنماط السُلوكية الواقعية، وقد عرّف **كلاكهوهن** الأنماط المثالية بأنها ما ينبغي أن يفعله أو يقوله أفراد مجتمع معينّ في مواقِف معيّنة إذا ما أرادوا الامتثال الكامل لمعايير السّلوك التي تحددها ثقافتهم، أما الأنماط السُلوكية الواقعية فتقوم على ملاحظة ما يمارسُه الناس فعلا في مواقف معيّنة، فالأنماط المثالية تمثل أساليب السُلوك التي تعتبر مفضّلة أو مرغوبة من جانب أبناء المجتمع، فهي تمثّل أوامر وأشياء مفضّلة في نظر ثقافة ما، وهي تختلف إلى حدّ ما عن أنماط السُلوك الفعلي، وأنماط السُلوك الواقعية، التي يمكن أن يستدل عليها من ملاحظة سلوك الناس الفعلي في مواجَهة مواقفِ معيّنة[79] .

ولعلّ تلك العناصر المادية والمعنوية المكّونة للثقافة، والاتجاهات المختلفة في تحديد مجال الثقافة والأنماط المثالية والواقعية في الثقافة، تنقلنا إلى محاولة التعرفّ على عناصر الثقافة وخصائصها وأهّم مقوماتها.

عناصر الثقافة :

يلجأ العلماء عند تحلّيل ثقافة أيّ شعب من الشعوب إلى العناصر الرئيسية التي تتألف منها تلك الثقافة، وذلك لتسهيل مهمّة العلماء في البحث والدراسة، فعند دراسة لغةٍ من اللّغات مثلاً، نستطيع أن نحللّها إلى عناصر بسيطة كحروفها، وطريقة نطقها، وما يتكّون عنها من

[79] محمد الجوهري : الأنثروبولوجيا _ أسس نظرية وتطبيقات عملية، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 67.

أصوات ومقاطع، وكيف تتكّون الكلمات من هذه المقاطع، وكيف ترتّب الكلمات لتكّون جملا، كلّ ذلك يمثّل بعض العناصر الأولى التي تحللّ إليها اللّغة[80].

وتعرف العناصر الأولى التي تحللّ إليها النماذج الثقافية باسم(السمات الثقافية)، وهذه السمات تعني الوحدات الأّولية التي يمكن أن تنقسم إليها النماذج، ولا تنقسم إلى أقل منها [81]. فالسّمة إذًا هي أصغر جزء يمكن التعرف عليها في الثقافة، أو هي أصغر وحدة يمكن تحديدها في ثقافة ما[82]. وعليه تعتبَر هذه السمات هامّةً جدًّا، فعن طريقها يمكن عقد المقارنة بين ثقافات الشعوب المختلفة، وعلاقة بعضها بعض، وما يمكن أن يكون قد حدث بين ثقافتين من تأثير متبادل أومن جانب واحد، وثقافة شعب ما قد تشتمل عل الأقل على عدّة مئات من الألوف لعناصر ثقافية، وكل سمة من هذه السمات متصلة أوثق اتصال بالسمات الأخرى، فهي لا تنتقل ولا تتغير بنفسها مستقلةّ عن غيرها، إذ أن ثمةّ ارتباطاً متبادلا بين العناصِر أو السمات الثقافية التي يتألفَّ منهاَ نموذج ثقافي مُعينّ[83].

ولذلك يجب ملاحظة أن العنصر أو(السّمة الثقافية)، هو حقيقة واقعية يمكن ملاحظتها حسيًّا، وقد يكون شيئاً، أو علاقةً، أو فكرة .. وتتمركز كلّ مجموعة من تلك العناصر أو السمات المختلفة في المضمون في مركّب يعرف باصطلاح(المركب الثقافي)، وهو كلٌّ يتكّون

---

[80] هشام بن سنوسي، مرجع سبق ذكره، ص 34.

[81] حسن شحاته سعفان : الأنثروبولوجيا _ علم الإنسان، مكتبة العرفان، بيروت، 1966، ص ص 113-114.

[82] مصطفى عمر حمادة :علم الإنسان : مدخل لدراسة المجتمع والثقافة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007، ص 207.

[83] حسن شحاتة سعفان، مرجع سبق ذكره، ص 114.

من عناصر أو سمات ثقافية، يرتبط بعضها ببعض وظيفياً، بمعنى أن كلّ عنصر متداخل مع العنصر الآخر، بحيث إذا حذفنا أحد تلك العناصر يختفي المركب الثقافي[84].

ويطلقُ بعض العلماء على النموذج أو النمط، اسم(المركب الثقافي) باعتبارهمركباً من عدة سمات أو عناصر أّولية لا تنقسم إلى أقل منها[85].

وكذلك النمط هو مجموعة من الأفكار والفعاليات والأشياء المادية، التي تتجمع بأسلوب منطقي، وتترابط بطريقة وظيفية، بحيث لا يمكن تمييزها، باعتبارها أجزاء، بل تبدو طراز عام متناسق، فالنمط الثقافي مثلاً، هو مجموعة السمات والحركات الثقافية التي تترابطوظيفياً في كلّ متكامل، يعطي الحضارة / الثقافة شكلها العام، وكل ثقافة تتكّون من نظم اجتماعية، اقتصادية، دينية، سياسية، أخلاقية، لغوية، عادات وتقاليد ..وكلّ نظام يتألفّ من أنماط، فإذا أخذنا الدين كنظام اجتماعي، وجدنا نمط الصوم، والحج، والزكاة ... وهذه الأنماط يتألفّ منها نظام دين ما، ويختلف طبعًا عن الأنماط التي يتألفّ منها أي دين آخر، وكلّ نمط يتألفّ من وحدات تسمى(السّمات)، فالسمة الثقافية هي الوحدة التي لا تنقسم إلى أقل منها، والتي تكّون مع مجموع السِّمات الأخرى نمطًا ثقافيًّا بأكمله[86].

والنمط أو النموذج الثقافي هو ما يشكّل الوحدة الأساسية في كلّ ثقافة، ويساعد هذا المفهوم على فهم العوامل التي تجعل السلوك الجماعي يتّصف بالانتظام والاطراد، فلولا ميل

---

[84] وصفي عاطف، مرجع سبق ذكره، ص 90.

[85] حسن شحاتة سعفان، مرجع سبق ذكره، ص 115..

[86] فاروق أحمد مصطفى و محمد عباس إبراهيم، الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007، ص ص 43- 76.

الثقافة إلى تكوين نماذج وأنماط ثقافية لاستحال انتظام السلوك الاجتماعي، وجاء سلوك الأفراد عشوائيا، تغلب عليه الفوضى طبقا لدوافعهم البيولوجية، واستحال بالتالي وجود المجتمع المنظّم، كما أن الفرد يندر أن يكتسب سمات فردية منعزلة، بل إنه يكتسب أنماطاً ثقافية وممارسات منظمة، لذلك كان السلوك الإنساني سلوكًا نموذجياً أو يتّبِع نماذج معينة، والذي ينقل عبر الأجيال، ويكتسب كأساليب حياة عن طريق التعليم، هو النماذج ولذلك كانت النماذج تمثّل الوحدات الأساسية في الثقافة والمجتمع[87].

وتأسيسًا على ذلك، نرى أنّ[88]:

1- **الثقافة** : هي مجموع النظم والعادات والتقاليد التي تسود المجتمع.

2- **النظام** : هو عدد من النماذج أو مركبات ثقافية مترابطة فيما بينها.

3- **النموذج أو المركب** : هو عدد من السمات الثقافية المترابطة فيما بينها.

4- **السمة** : هي عناصر أّولية لا تنقسم إلى أقلّ منها .

ويجب أن نأخذ في الاعتبار أن تحلّيلأيةّ ثقافة إلى سماتها أو عناصرها الأولى لا يكفي لدراستها، إذ لا بدّ من معرفة(التضاريس _ الصيغ _ التشكيلات)، وهذا التعبير الأخير أدخلته **روث بندكت** Ruth Benedict، ذلك أن ثقافة أي شعب من الشعوب ليست حصر العناصر أو السمات التي تتألفّ منها الثقافة، أو بيان مجموع تلك السّمات بل دراسة الترتيب الخاص لتلك السمات والعلاقات المتبادلة بين تلك الأجزاء، وهي العلاقات التي تجعل من هذه الأجزاء

---

[87] مصطفى عمر حمادة، ص 212.

[88] حسن شحاتة سعفان، مرجع سبق ذكره، ص 115.

كُلا ثقافيًّا جديدًا، فالتشكيلات الثقافية(الصيغ- التضاريس)، هي الطريقة التي تترتب وفقها السمات، وتتصل فيما بينها اتصالا متبادلا بحيث يتكّون منها نموذجٌ ثقافي يختلف عن النماذج المشابهة الأخرى[89].

وكذلك شأن السمات الثقافية، إذ نجد أن سمة معيّنة قد تلعب دورًا في البناء الاجتماعي لمجتمع غير الدور الذي تلعبه في بناء آخر، فالقطع الرمزية التي يلبسها بعض الأفراد في المجتمعات للتبرك أو للزينه، نجد أنها في بعض المجتمعات البدائية تلعب وظيفة بيان انتماء الفرد لقبيلة معيّنة، وقد تحصّنه ضدّ بعض الأمراض وأعمال السّحر[90].

خصائص الثقافة :

تُعدُّ الحياة الاجتماعية في أيّ مجتمع، نسِيجًا مُتكامِلا من الأفكار والنظُم والسلوكات التي لا يجوز الفصل فيما بينها، باعتبارها تشُكّل التركيبة الثقافية في المجتمع، إلى درجةٍ تُحدِّد مستوى تطوُّرِه الحضاري[91].

وإذا كان التأثير البيُولوجي للإنسان في الثقافة معدومًا على المستوى الاجتماعي، باستثناء بعض الحالات الفردية الاستثنائية(الشاذة)، فإنّ تأثير العامِل الثقافي على الوجود البيُولوجي، هو تأثيٌر فاعلٌ ومحسُوس، ليس على مستوى الفرد فحسب، بل على مستوى المجتمع بوجهٍ عام ..فكماَيتِمُّ اصطِفاء النَوع،يتِمُّ اصطِفاءالثقَافة على أساس تكيُّفِها مع البيئة، وبمقدار ما

---

[89] هشام بن سنوسي، مرجع سبق ذكره، ص 37.

[90] حسن شحاتة سعفان، مرجع سبق ذكره، ص 115- 116.

[91] هشام بن سنوسي، مرجع سبق ذكره، ص 38.

تُساعِد الثقافة أعضاءها في الحصول على ما يحتاجونه، وفي تجنُّبِّ ما هو خطر، فإنّها تُساعِدهم على البقاء[92] .

وهذا يُؤكّد أنّ النموذج العام لأيِّ ثقافةٍ، يأتي مُنسجِمًا مع الإطار الاجتماعي الذي أنتجها، ويرسم بالتالي السمات والمظاهر الاجتماعية لدى الأفراد الذين يتشرّبون هذه الثقافة، ويعَملون ما بوسعِهم للحفاظ على هذا النموذج الثقافي واستمراريته وتطويره.

واستنادًا إلى هذه المعطَيات، فإنّ ثَمّة خصائصِ تتَّسِّم بها الثقافة، 2 بحسب مَفهومِها وطَبيعتِها، ومن أبَرزِ خَصائصِ هذه الثقافة أنّها[93]:

1- الثقافة خاصية إنسانية:

إن الإنسان هو الحيوانُ الوحَيد المزّود بجهازٍ عصبي خاص، وبِقُدرات عقلية فريدةتتُيح له ابتكار أفكار جديدة، وأعمال جديدة، ومثاَلُ ذلك انتقاله من المناطق الدافئة إلى المناطق الاستوائية، وتكيفُّه معها باختراع أعمالٍ جديدةتخفّف عنه شدّة الحرارة والرطوبة، ثم انتقاله من طور إلى آخر(جمع القوت _ الصيد_ الرعي والزراعة)، دون أن تظهر عليه أيةّ تغيّرات عضوية تذكر، وإنّما الذي تغيّر هو ثقافته، أي مجموع أفكاره وأعماله وسلوكاته.

2- الثقافة سلوك مكتسب:

---

[92] ب. ف سكينر، تكنولوجيا السلوك الإنساني، ترجمة: عبد القادر يوسف، عالم المعرفة، الكويت، 1980، ص 130.

[93] للمزيد حول هذا الموضوع ينظر :أحمد أبو زيد : محاضرات في الأنثروبولوجيا الثقافية، و .ومرفت العشماوي– عثمان العشماوي : الأنثروبولوجيا الثقافية : المجال والموضوع، ضمن الأنثروبولوجيا : علم الإنسان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2009، ص ص 149-159.

تشير هذه الخاصية إلى أن الثقافة ليست ظاهرة فطرية تولد مع المجتمع أو مع الإنسان، وإنما هي نتاج تفاعل عوامل متعددة اجتماعية وبيئية، تبلور نظاما من الرموز يوجه تفكير الناس، فيتعلمونه جيلا عن جيل. وتتم عملية اكتساب الثقافة لدى الفرد والجماعة عبر عملية التنشئة الاجتماعية التي هي الأخرى ظاهرة موجودة بالضرورة في أي مجتمع إنساني، وتعبر بدورها عن حالة التفاعل الضروري للفرد داخل المجتمع باعتباره كائنا بشريا[94].

يكَتسِب الإنسان الثقافة من ُمجتمعِه، منذ ولادته وعبر مسيرة حياته، وذلك من خلال الخبرات الشخصيةّ، وما دام كلُّ ُمجتمعٍ إنساني يتميَّز بثقافةٍ ُمعينةَ، محدّدة الزَمان والمكَان، فإنّ الإنسان يكَتسِب ثقافة المجتمع الذي يعيش فيه ُمنذ الصغر، ولا تؤثّر العوامل الفيزيولوجية في عملية الاكتساب، أي أنّ عملية التنشئة الاجتماعية الثقافية، هي العملية التي تقوم بنقل ثقافة المجتمع إلى الطِفل، ومهما كانت السّلالة التي ينتمي إليها الفردفإنه ّ يستطيع أن يلتقط ثقافة أي ُمجتمع بشري، إذا ما عاش فيه فترة زمنية كافية.

3- الثقافة اجتماعية:

بما أنّ الثقافة هينتِاجٌ اجتِماعِي أبدعتهجماعةٌ معيّنة، فإنّ دراسة الثقافة لاتتِمُّ إلا من خلال الجماعة أو المجتمع البشري، وذلك لأنّ هذه الثقافة تمثّل عادات المجتمع وقيمه، وليست عادات الأفراد كأفراد، وإن كانت النظُم الثقَافية تختلف في مدى شموليتها الاجتماعية، فهناك نظُم تطبُّقّ على أفراد المجتمع جميعًا، وفي المقابل هناك نظُّم كثيرة، ولا سّيما في الثقافات

[94] عامر مصباح، مرجع سبق ذكره، ص 105.

المتمدّنة، لا تطبقّ إلا على جماعةٍ مُعيّنَة داخل المجتمع الواحد، ولا تطبقّ على الجماعات الأخرى، وهذا ألحق بالثقافات الفرعية[95].

4- الثقافة تطورية- تكاملية:

على الرُّغِم من أنّ لكِلِّ جماعة بشرية معيّنة ثقافة خاصّة بها، إلا أنّ هذه الثقافة ليست جامدة، بل هي متطوّرة مع تطوُّر المجتمع من حالٍ إلى حالٍ أفضل، ولايتِمُّ التطوُّر في جوهر الثقافة ومحتواها فحسب، وإنّما أيضًا في الممارسة والطريقة العملية لسلوكات الإنسان الذي يعيش في المجتمع المتطوِّر.

وهذا التطوّرُ لا يَعنى أنّ كلَّ مرحَلةٍثقافية هي مُنعزِلة عن الأخرى، بلثمةّ تكَاملٌثقافي فيثقافة المجتمع الواحد، وذلك لأنّالثقافة بتكاُملها، تشبعِ حاجَات الإنسان المادِية والمعنَوية، وهي تجمَع بين المسَائل المتصِّلة بالرُوح والفِكر، وبين المسَائل المتصِّلة بحاجَات الجسَد، أي أنّهاتُحقّق التكَامل بين الحاجَات البيُولوجية والنفسِية والاجتَماعية والفكرِية والبيئيِة.

5- الثقافة استمرارية- انتقالية:

بماَ أنّالثقافة تنبع مُن وجُود الجماَعة، ورضَاهم عنها، وتمسُّكِهم بهاَ، فهي بذلك ليست مِلكًا لفردٍ مُعينّ، ولا تنحصِر في مرحلةٍ محدّدة، لذا لا تمُوت الثقافة بموتِ الفرد، لأنّها ملكٌ جماعي، وتراثٌ يرثه أفراد المجتمع جميعًا، كما أنه لا يمكن القضاء على ثقافةٍ ما، إلا

[95] عاطف وصفي، مرجع سبق ذكره، ص ص 81-84.

بالقضَاء على أفراد المجتمع الذي يتّبِعها، أو بتذويب تلِك الجماَعة التي تُمارِس هذه الثقافة، بجماَعةٍ أكبر وأقوى، تفرض ثقَافة جديدة بالقّوة [96].

وإذا كانت الثقَافة تشُكّل إرثاً اجتماعياً، فإّنها إذن قابلة للانتقال من جيلِ الكِباَر إلى جِيلِ الصِغَار بواسِطة عمليِة التثَقِيف أو التنشئة الثقافية _ الاجتماعية، أي(العملية التربوية) التي تعني في بعض جوانبها : نقل ثقافة الراشِدين إلى الذين لم يرشُدوا بعد، كما يمكن أن يتِمَّ هذا الانتقال أو(الانتشار) إلى جماعات إنسانية أخرى من خلال وسائل الاتصّال المختلفة.

فالثقافة لا تُوَجد إلا بوِجُود المجتمع، والمجتمع من جِهتِه لايقُوم ويَبقَى إلا بالثقافة، لأّن الثقَافة طريقٌ متمّيز لحياة الجماَعة، ونمطٌ متكامِل لحياة أفرادِها، وهي التي تمدُّ هذه الجماَعة بالأدوات اللاّزمة لاطراد الحياة فيها، وإن كانت ثمةّ آثاٌر في ذلك لبعض العوامِل البيُولوجية والجغرافية.

6- الثقافة معقدة:

الثقافة كلّ معقّد نظراً لاشتمالها على عددٍ كبيرٍ جدًا من السمات والعناصر، ويرجع ذلك التعقيد إلى تراكم(وتوارث) التراث الاجتماعي خلال عصور طويلة من الزمن، وكذلك إلى استعارة كثيرٍ من السمات الثقافية من خارج المجتمع نفسه، كما يعني أيضًا أن عالم

[96] إبراهيم ناصر : الأنثروبولوجيا الثقافية: علم الإنسان الثقافي، عمّان، الأردن، 1985، ص ص 103-104.

الأنثروبولوجيا لن يستطيع تسجيل كل مظاهر وسمات أي ثقافة من الثقافات التي يدرسها مهما بلغت من البساطة[97].

7- الثقافة إشباعية:

الثقافة تشبع دائماً بالضرورة الحاجات البيولوجية، وكذلك الحاجات الثانوية المشتقة منها، ولذلك يقال إن للثقافة خاصيةّ اشباعية، والجوع والعطش مثالان على الحاجات البيولوجية، أّما الحاجات الثانوية المشتقة فيمكن أن نطلق عليها الحاجات الاجتماعية الثقافية، لأنها تظهر وتنشأ من خلال التفاعل الجمعي[98] .

وذلك يعتبر نتيجة مستخلصَة من المبدأ السَيكولوجي الحديث بشأن المنبهِ والاستَجابة، فالثقَافة تتكوَّن من عادَات، ولقد أثبت علم النفس أن العادَات لا تُوم ولا تترسَّخ إلا بقدر ما تجد اشباعاً[99]، وتأسيسًا على ما تقّدم فإنّ مكونات الثقافةتبقَى فقط إذا ما كانتَ تمدّ أفراد المجتمع بحدٍّ أدنى من الإشباع.

8- الثقافة انتقائية:

إن انتقال عناصر الثقافة، هو انتقالٌ انتقائي، بمعنى أن الجيل الذي يتلقى عناصر الثقافة، ينتقي منها البعض، ويستبعد البعض الآخر، تبعًا لظروفه وحاجاته، فالجيل الحالي

---

[97] أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعي _ مدخل لدراسة المجتمع، ص ص 193-194، و محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية، ص 47.

[98] سامية حسن الساعاتي، الثقافة والشخصية: بحث في علم الاجتماع الثقافي، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، ص ص 76-77.

[99] سامية محمد جابر، علم الإنسان : مدخل إلى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، دار العلوم العربية، بيروت 1991، ص 29.

مثلاً، قد لا يقبل كلّ العادات القديمة التي شاعت لدى الأجيال السابقة، فيقف منها موقفاً انتقائياً ، لينتقي منها ما يناسب ظُروفه وأحوالَه، ولا شكّ أن قبولنا الواعي لعناصِر الثقَافة يجعل لنا نوعاً من القُدرة على تكييفها تبعًا لظروفنا، والوقوف منها موقف الانتقاء لا موقف التلقي السّلبي[100].

9- الثقافة متنوعة- نسبية:

تختلف الثقافات في مضمونها بدرجةٍ كبيرة، فالنظم التي قد يتبعهلجتمعٌ ما، معتقدًا أنها فضيلة، قد تعتبر جريمةً في مجتمعٍ آخر، يعاقب عليها القانون(النسبية)، ولذلك نرى أن الثقافة تتّصف بأنها ظاهرةٌ إنسانية توجد في كلّ المجتمعات، ولا يعني ذلك أنها متطابقة أو متشابهة في كلّ تلك المجتمعات، فالثقافة تختلف من مجتمع إلى آخر، وهي بالتالي تكون نسبية، أولها خصوصيتها المميزة، بمعنى أن ما ينطبق على ثقافة ليس من الضروري أن ينطبق على ثقافة أخرى [101].

ومن ثمَّ لا يُمكِن فهم وتفسِير وتقييمِالثقَافات أو الظواهِر الثقافية على وجهٍ صحيح إلا إذا نظرنا إلى الظواهر التينقُوم بدراستها بالنسبة إلى البيئةِ الموجودةِ بها، وإلى الدور الذي تؤدِيه في نسَق اجتماعيوثقَافي أكبَر، وإنه بالتالي ليسَت هناك قيم شامِلةمطلقَة [102].

---

[100] سامية الساعاتي، مرجع سبق ذكره، ص ص 81-82.

[101] السيد حافظ الأسود، الثقافة الإنسانية: طبيعتها خصائصها وأنماطها، ضمن علم الإنسان _ مدخل عام، دار القلم، دبي، 1995، ص 140.

[102] أحمد زكي بدوي : معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1997، ص 352.

10- الرمزية والرمز والثقافة:

الرّمزية Symbolisme هي إعطاء معانٍ لأشياء بحيث يصبحِ في إمكان هذا الجزء أن يُعوب عن الكّل ويشير إليه، ويتضّمن هذا الاصطلاح أشكالا عديدة من أنماط السّلوك التي يقُصد بها توجِيه اهتمام خاص لشخص أو شيء أو فكرة أو واقعة ترتبط أو لا ترتبط على الإطلاق بالرمز نفسِه[103].

وينظر علم الإنسان إلى الثقافة على أنها نسقٌ من الرّموز التي يستخدمها الأفراد في علاقتهم، كلّ منهم بالآخر، وفي تفاعلهم مع البيئة الطبيعية والاجتماعية، والرموز تشِير إلى موضوعاَت أو أفَعال أو أشياَء أو أحَداث من حيثُ أن لها معاني مُميَّزة بالرّغم من عدم وجود علاقة ضرورية بين الرموز وتلك الأشياء، بمعنى أن علاقة تعسفيةتقُوم في المحل الأّول على وجوداتفَاق عام داخل المجتمع بأّن رمزًا معيناً يشير إلى معنى مُعينّ[104].

ويستخدم البشر الرمز أيضفُون معاني مختلفة على ظواهر مادية، فنجد أن اللّون قد يدلّ على الخطر أو الحزن مثلا وهكذا.. إنّ القدرة على استخدام الرموز وتفسِيرها، هي أحد العوامل الهاّمة التي تمّيز الإنسان عن سائرِ الكائناَت الأخرى، فالإنسان قادرٌ على استخدام الرمز وإضفاء معانٍ كثير على شيء واحد، وهذهالقُدرة تكُون غائبة تمامًا عن الحيوان، الذي لا يدرك اللّغة واستخدامها، وبالتالي لا يعرف الرمز بالرغّم من معرفته للإشارة التي تختلف عن الرّمز اختلافاً كبيرًا، فالحيوان يدُرك الإشارة، عن طريق الارتباط الشرطي _ الآلي، بين إشارة

---

[103] المرجع السابق نفسه، ص 418.

[104] السيد حافظ الاسود، مرجع سبق ذكره، ص 147.

معيّنة وبين شيء آخر مرتبط بها ارتباطاً مباشرًا، مثلما هو الحال عندما يتم إصدار صوت معيّن أو القيام بفعل معيّن يكون بمثابة الإشارة [105].

والقدرة على استخدام الرمز، تمكّن الإنسان من نقل ما تعلّمه على نحوٍ أكثر كفاءة، كما أنها تيسّر للإنسان عبور الفجوة القائمة بين الخبرات المادّية المنفصلة، مما يضفي طابع الاستمرار والاتصال على اكتساب الخبرات البشرية، بالإضافة أن البشر يتعلمُون من خلال الخبرة التي تتراكم في صورة رموز، تكون لغوية عادة، فما أن ينجح الإنسَان في حلّ مشكلةٍ معيّنة، حتى يصبح بوسعِه تلخيص هذه الخبرة في كلمات، مستبعدًا كلّ محاولاته الفاشلة، لكي تكُون هذه الخبرة في متناوَل الآخرين، وبهذه الطريقة يمكن أن تصبحِ جميع خبرات أي فرد في متناول بقية أفراد المجتَمع [106].

كما أن اللّغة وغيرها من أَساليب الترميز، تمكّن البشر من تلخِيص أساليب السُلوك التي تعلّموها، ونقلِها لكلّ جيلٍ جديد، كذلك يؤدي خلق الرّموز واستخدامها، إلى تمكين الإنسان من جعلِ خبراته تتدفق باستمرار، ذلك أن الخبرات المادية ليست مستمرةّ سواء عند الإنسان أو الحيوان، فلكل خبرة بداية ونهاية، وتفصل بين كلّ خبرة فترة زمنية قد تطول أو تقصر [107] .

وتعتبر الرموز، وسيلة هامة في عملية التعلّيم وتحصيل المعارف، حيث إن الرموز بقدرتها التشخيصية الحسية أو طبيعتها المادية، تجعل التصوّرات المجرّدة أكثر يسرًا على الفهم،

---

[105] المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها

[106] محمد الجوهري، مرجع سبق ذكره، ص ص 92-93.

[107] المرجع نفسه، ص 93.

فتصور العدالة وهو تصوّرٌ مجرّد، يمكن فهمه بشكل أيسر، عندما يرمز إليه برمز الميزان، وهو رمزٌ يشيرُ إلى مفهوم العدل [108].

وعادةُ تكْوِين الرّمز واستخدامه، تسَمح للإنسان بالقدرة على التفكير في المشكلة، حتى ولو لم تكن ماثل ةمادياً أمامه، ذلك لأن البشَر يناقشِون مشكِلاتهم مع الآخرين ومع أنفسهم، من خلال التعبير عن المشكلة في كلمات، واختيار الحلول أثناء المحادثة أو بطريق التخيلّ، وهكذا يمكن القول، بأنّ الإنسان يستطيع تحقيق الخبرة والتعلم، بتحويل هذه الخبرات(المادية) إلى رموزٍ، تتخذ صورة الكلمات المدونة، أو بوسائل أخرى من نفس النوع [109].

فالثقافة إذًا لا تتكّون من أساليب المتعلمة التي تراكمت على يد أفراد كثيرين عبر أجيال عديدة، ولا يتيسّر تراكم السلوك المتعلم إلا من خلال وضع رموزٍ معيّنة واستخدامها، فبدون هذه الوسيلة يصبحِ التعليم جامدًا، وغير قابلٍ للتقدم، والإنسان هو الوحيد القادر على ممارسة سلوك رمزي، وإذا كان من الممكن، أن يتعلّم الحيوان كيفية استخدام هذه الرموز، فإنّه لا يستطيع أن يخلفها، فالثقافة في جوهرها هي تراكم لأنماط السُلوك المتعلم، التي نشأت وتطورت بفضل الرموز التي ظهرت إلى الوجود عندما تعلّم الإنسان كيف يرمز للأشياء [110].

11- الثقافة تعبير عن الشخصية:

[108] السيد حافظ الأسود، مرجع سبق ذكره، ص 148.

[109] محمد الجوهري، مرجع سبق ذكره، ص 94.

[110] المرجع السابق نفسه، ص ص 94-95.

ترجع جذور بحث العلاقة بين الثقافة والشخصية إلى أعمال إدوارد سابير، والتاي من بينها مقاله بعنوان "ظهور مفهوم الشخصية في دراسة الثقافات" الذي نشره في مجلة علم النفس الاجتماعي عام 1934، وكذلك أعمال سليجمان في انجلترا حول موضوع الثقافة والشخصية، والتي منها مقاله حول الثقافة والشخصية الذي نشره بمناسبة تعيينه رئيسا للمعهد الملكي الانثروبولوجي في بريطانيا، يعكس موضوع الثقافة والشخصية العلاقة بين علم النفس وعلم الانثروبولوجيا التي سبق الحديث عنها سابقا، يضاف إلى ذلك أعمال كل من **كلاكهون** و **مورار** اللذان درسا العلاقة بين الثقافة والشخصية، وتأثير بعضهما البعض من ناحية البنية البيولوجية والسلالية والأمزجة والرموز والطقوس والاعتقادات والأخلاق والإدراكات وغير ذلك من جوانب الحياة الثقافية للمجتمعات البشرية[111].

فقد أدت الدراسات حول الشخصية إلى صياغة العديد من المقولات حولها، والتي حاولت أن تلخص العدد الهائل من الأفكار في شكل نتائج أو صياغات نظرية. فالشخصية ما هي إلا استجابات تكونت لدى الفرد بناء على تراكم الخبرة وتفاعلها مع ظروف البيئة التي تحيط بها، كما تتدخل الصفات الوراثية للفرد والسمات البيولوجية في تكوين مركب الشخصية، الذي هو الآخر يؤثر في النظام الثقافي والبيئة الاجتماعية ويتأثر بها، كتعلم اللغة ونمط السلوك ونمط

[111] عامر مصباح، مرجع سبق ذكره، ص 110.

الإدراك المعرفي وتكّون البيئة المعرفية ككل، التي تصبح جزء أساسيا مميزا للشخصية، كأن يقال شخصية الطبيب شخصية المعلم، شخصية الفيلسوف وهكذا[112].

المحور الخامس: الأنثروبولوجيا الاجتماعية

تعريف الأنثروبولوجيا الاجتماعية

تعرّف الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأّنها :دراسة السلوك الاجتماعي الذي يتّخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، ونسق القرابة، والتنظيم السياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية، وغيرها. كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات[113].

ولذلك، فمن الضروري في دراسة الإنسان وأعماله، أن نميّز بين عبارة " ثقافة " وعبارة " مجتمع " المرافقة لها. فالثقافة – كما في تعريفاتها – هي طريقة حياة شعب ما، أّما المجتمع فهو تكتّل منظّم لعدد من الأفراد، يتفاعلون فيما بينهم ويتبعون طريقة حياة معّينة .. وبعبارة أبسط : المجتمع مؤلّف من أناس، وطريقة سلوكهم هي ثقافتهم .

---

[112] المرجع السابق نفسه، ص 111.

[113] إدوارد بريتشارد، الأنثربولوجيا الاجتماعية، ط 5، ترجمة : أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، 1975، ص 13.

وهنا تعدّ تصنيفات المؤسّسات والأنظمة الاجتماعية، أدوات نافعة للأغراض الوصفية، كما أنّ ا لتعميمات بالنسبة للعلاقات المتداخلة والمتبادلة بين النماذج والمؤسّسات، تساعد في الاهتداء إلى نوع من النظام وسط أوضاع تبدو مشوّشة وغامضة، وفي زيادة الفهم الحقيقي للعمليات الاجتماعية.وفي الوقت ذاته، يعتمد هذا الفهم على دراسة النسق الكلّي الذي يؤلّف النظام الاجتماعي جزءاً منه. ويضّم هذا النسق ثلاثة عناصر متمّيزة، هي : شخصّيات الأفراد الذين يؤلّفون المجتمع، والبيئة الطبيعية التي يتعّين على المجتمع أن يكّيف حياته وثقافته معها، وأخيراً المجموعة الكاملة من الوسائل الفنّية اللازمة للمعيشة، التي تضمن استمرار بقاء المجتمع عن طريق نقلها من جيل إلى جيل) [114] .لينتون، 1964، ص 357)

ولكن، هل يمكن أن نفصل على هذا الشكل بين الإنسان كحيوان اجتماعي، والإنسان كمخلوق ذي ثقافة؟ أليس السلوك الاجتماعي في الواقع سلوكاً ثقافياً؟ ألم نَر أنّ الحقيقة الكبرى في دراسة الإنسان ، هي الإنسان نفسه أكثر ممّا هي ُمثُل الإنسان أو نظمه، أو حتى الأشياء المادية التي نجمت عن ارتباطه بتكتّلات نسّميها " مجتمعات "؟

فالنظام الاجتماعي إذن، هو التعبير التقني الأنثروبولوجي الذي يدلّ على المظهر الأساسي في حياة الجماعة الإنسانية، وهو يشمل النظم التي تؤلّف إطاراً لأنواع السلوك جميعها، سواء كان فردياً أو اجتماعياً .

[114] ميليفل هرسكوفيتز، أسس الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة : رياح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق، 1974، ص ص 20-21.

إنّ اللغة والحياة الاجتماعية المنظّمة، زّودتا الإنسان بأدوات لنقل الثقافات، مهما بلغت من التعقيد، والمحافظة على تراثها بصورة غير إيجابية وعملت الحياة الاجتماعية أيضاً على جعل الإنسان في حاجة إلى إرث اجتماعي، يفوق في ثروته ما تحتاج إليه الحيوانات. وتّمت المحافظة على المجتمعات البشرية، بتدريب أجيال متلاحقة من الأفراد .. ولذا كانت المجتمعات، هي نفسها، حصيلة الثقافة[115].

وبناء على ذلك، تهدف دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى تحديد العلاقات المتبادلة بين هذه النظم، سواء في المجتمعات القديمة التي تدرس من خلال آثارها المادية والفكرية، أو في المجتمعات الحديثة والمعاصرة، التي تدرس من خلال الملاحظة المباشرة لمنجزاتها وتفاعلاتها الخاصة والعامة.

نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية وتطّورها:

يعدّ اهتمام الأنثروبولوجيا عامة، والأنثروبولوجيا الاجتماعية خاصة، بدراسة المجتمعات الإنسانية، وعلى المستويات الحضارية كافة، منطلقاً أساسّياً من فلسفة علم الأنثروبولوجيا وأهدافها، ولا سّيما دراسة أساليب حياة المجتمعات المحلية، إلى جانب دراسات ما قبل التاريخ، ودراسات اللغات واللهجات المحلية .. وهذا ما يميّز الأنثروبولوجيا من العلوم الإنسانية / الاجتماعية الأخرى، ولا سّيما علم الاجتماع .

[115] رالف لينتون، الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة : عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1967، ص 119.

ويوصف علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأّنه علم حديث العهد، لا بل من أكثر العلوم الاجتماعية حداثة. فقد استخدم مصطلح (الانثروبولوجيا الاجتماعية (للمرّة الأولى في عام /1980/ عندما كرّمت جامعة ليفربول في بريطانيا السيد **جيمس فريزر** ومنحته لقب الأستاذ.

ومماّ يدلّ على حداثة هذا العلم الذي يدرس الجانب الطبيعي / التطبيقي، من البنى الاجتماعية، ذلك الاختلاف الذي ما يزال قائماً بين علماء الاجتماع حول هذه التسمية : (الأنثروبولوجيا الاجتماعية). ولكن على الرغم من حداثة هذا العلم، فقد مّر بمراحل متعّددة أسهمت في نشوئه وتطّوره واستكمال عناصره إلى حدّ بعيد، بدءاً من القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر.

في **القرن الثامن عشر :** تعدّ الدراسات التي أجريت في القرن الثامن عشر حول الأبنية الاجتماعية، وأنساق القيم السائدة فيها، من أهّم الدراسات التي مهّدت لظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية. وكان في مقّدمتها كتاب " روح القوانين "الذي ألّفه / مونتسيكو / عالم الاجتماع الفرنسي، والذي أكّد فيه أنّ المجتمع البشري وما يحيط به، يتكّون من مجموع نظم مترابطة، بحيث لا يمكن فهم القوانين عند أي شعب من الشعوب، إلاّ إذا درست العلاقات التي تحكم هذا النظام أو ذاك، بما فيها البيئة والحياة الاقتصادية، والسكان والمعتقدات والأخلاق السائدة، حيث ميّز الفيلسوف الفرسي **مونتسيكو** بين البناء الاجتماعي والنظام القيمي، على الرغم من العلاقة بينهما. وأوضح أنّ المجتمع ذاته وما يحيط به، يتكّون من نظم يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وظيفّياً، وبالتالي لا يمكن فهم القانون العام لدى أي شعب من الشعوب، إلاّ إذا درسنا العلاقات

بين هذه القوانين كلّها، ومن ثّم دراسة علاقة تلك القوانين بالبيئة الطبيعيّة والحياة الاقتصادية، وعدد السكان والأعراف والتقاليد السائدة أو التي كانت سائدة[116] .

ولكن / سان سيمون / عالم الاجتماع الفرنسي أيضاً، يعدّ أول من رأى ضرورة إنشاء علم للمجتمع، واقترح إنشاء علم وضعي للعلاقات الاجتماعية. واعتبر أنّ مهمّة علماء الاجتماع لا تقتصر على دراسة المفاهيم والتصوّرات الاجتماعية فحسب، وإنّما يجب أن تشمل تحليل الوقائع والحقائق التي تعزّزها.

وإذا كان **سيمون** لم يقصد تماماً إنشاء علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية وإنّما قصد إيجاد علم خاص يدرس النظم الاجتماعية وعلاقاتها دراسة موضوعيّة، فإنّ ذلك تحقّق فعلاً بجهود تلميذه **أوغست كونت** .

هذا في فرنسا، أمّا في إنكلترا، فقد ظهرت دراسات تمهيدية لعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولا سيّما أبحاث **دافيد هيوم وآدم سميث**حيث نُظر إلى كلّ مجتمع إنساني على أنّه نسق طبيعي ينشّأ من الطبيعة البشرية، وليس عن طريق التعاقد. ولذلك انتشرت مفاهيم جديدة، مثل : الأخلاق الطبيعية والدين الطبيعي. واعتبر المجتمع (أي مجتمع إنساني) ظاهرة طبيعية، لا بدّ من استخدام المنهج التجريبي والاستقرائي، عند دراسته بدلاً من المناهج العقلية الفلسفية .

[116] علي لجباوي، الأنثروبولوجيا – علم الإناسة، جامعة دمشق ، 1997/1996، ص 101.

وظهرت في هذه المرحلة التمهيدّية بوادر الاهتمام بالمجتمع البدائي، اعتماداً على رحلات الاستكشاف للآثار والمتاحف والمصادر المختلفة. وقد نُظر إلى الإنسان البدائي على أّنه متوحّش في مجتمعه، وهمجي في سلوكاته .. يتناقض كلّية مع إنسان المجتمع المتمدّن والمتقدّم. وخير مثال على ذلك، ما كتبه **جون لوك** عن الهنود الحمر في أمريكا، حيث أصدر أحكاماً عامة وغير دقيقة، عن هذه الشعوب البدائية .

والخلاصة، إنّ علماء القرن الثامن عشر وفلاسفته، مهما تكن آراؤهم، مهّدوا بشكل أساسي لظهور علم دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وذلك نتيجة لاهتمامهم بالنظم الاجتماعية من جهة، واعتبارهم المجتمعات الإنسانية أنساقاً طبيعية، في إطار (الطبيعة البشرية) من جهة أخرى يجب أن تدرس من خلال المناهج التجريبية، على الرغم من أنّ دراسات هؤلاء المعنيين كانت بعيدة عن طبيعة هذه المناهج، وكانت تعتمد على التحليل الصوري (الشكلي).

في القرن التاسع عشر : يعدّ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فترة نشوء الأنثروبولوجيا كعلم معترف به، وقد أسهم في ذلك صدور العديد من الدراسات والكتب التي بحثت في هذا العلم وحدّدت معالمه الأساسية، ولا سّيما مؤلّفات كلّ من **(تايلور وماكلينان)** في إنكلترا، و **(بافوفين)** في سويسرا، حيث اهتّم هؤلاء بجمع المعلومات عن الشعوب البدائية، وأبرزوها بصورة منهجية منظّمة، من خلال دراسة النظم الاجتماعية، وفي حدود الأبنية الاجتماعية لهذه المجتمعات، وليس في حدود الفلسفة وعلم النفس. فوضعوا بذلك أسس علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

فقد فسّر **ماكلينان** مثلا : تحريم زواج المحارم في بعض هذه المجتمعات البدائية (نظام الزواج الأكسوجامي) استناداً إلى ظواهر اجتماعية أو عقائد خاصة بتلك المجتمعات، رافضاً إرجاعه إلى أسباب بيولوجية أو نفسية. كما أنّ طريقة الزواج التي تتمثّل في عملية خطف العروس، لم تستند إلى نظريات نفسية أو فلسفية، وإنما ترجع إلى عادات مترسّبة من الماضي في ممارسة السبي والاغتصاب.

ولم يكن رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية في القرن التاسع عشر، يستخدمون الدراسات الميدانية، بل اعتمدوا على أقوال الرحالة والمستكشفين ورجال الإدارة .. ولذلك، تعدّ هذه المرحلة فترة نشوء هذا العلم، وليست فترة كماله ونضجه، لأنّ الدراسات الميدانية / التطبيقية تعدّ من الركائز الأساسية لتكامل هذا العلم، بطبيعته ومنهجيّته .

وقد تميّزت هذه المرحلة بظهور مدرستين متداخلتين، هما : النشوئية والتطوريّة. ويعود تداخلهما إلى أنّ العالِم الأنثروبولوجي، أو العالم الاجتماعي عندما يقوم بتفسير عمليّة التطوّر في أي نظام اجتماعي، من الماضي إلى الحاضر، لا بدّ أن يعمد إلى تحديد نشأة هذا النظام، وذلك بالعودة إلى المجتمعات البدائية لدراستها واستخلاص صفاتها وعلاقاتها، باعتبارها تمثّل التاريخ المبكر للجنس البشري .

مثال ذلك : (نشأة الأسرة وتطورها) من حيث الإباحية الجنسية، وتعدّد الزوجات وصولاً إلى وحدانية الزوجة. وكذلك الانتساب إلى الأم ومن ثّم إلى الأب .وهذه العودة إلى الشعوب

البدائية، لا تقتصر على الأنثروبولوجيا فحسب، بل تشمل سائر فروع المعرفة الخاصة بالعلوم الإنسانية .

وقد تأثّر رواد هذه المدرسة، وفي مقدّمتهم **إدوارد تايلور** بنظرية **داروين** ، في تطّور الحياة الطبيعّية للكائنات البشرية، وتستند هذه النظرية إلى أنّ العناصر المركّبة في الحضارة الإنسانية، تتطّور باستمرار من الأشياء البسيطة إلى الأشياء المعقّدة، وهذا ما ينسحب على تطّور النظم الاجتماعية.

ويرتبط اسم **داروين** على الأقلّ في أذهان عامة المثقفين في العالم، بأّنه الرجل الذي نادى بنظرية التطّور متحدّيا فكرة الخلق، وذهب في ذلك إلى حدّ القول بانحدار البشر من القردة العليا. ولكنّ الحقيقة أكثر تعقيداً من ذلك، حسب تعبير الأستاذ **كريستوفر بوكر**، فلم يكن **داروين** هو مؤسّس تلك النظرية، إذ سبقه إليها عدد كبير من العلماء الطبيعيين الذين كانوا يرون أنّ صور الحياة المختلفة، تطّورت كلّها على شكل واحد بسيط، أي أنّ هذه الأشكال لم تخلق خلقاً مستقلاً ومتمّيزاً كلّ منها عن الآخر .

وقد انتشرت هذه الأفكار قبل ظهور كتاب داروين عن " أصل الأنواع " بسبعين سنة على الأقلّ. وكان كلّ ما فعله **داروين** ، هو أّنه قام بتجميع تلك الأفكار والآراء المبعثرة والمتناثرة، وتحليلها بطريقة منهجية، فيها قدر كبير من محاولة الفهم والتعّمق. ومن هنا ساعد كتاب " أصل الأنواع " في توطيد فكرة التطّور وترسيخها. ولكنّ الأهّم من ذلك، هو أنّ الكتاب

يقّدم نظرية متماسكة عن الطريقة التي حدث فيها التطّور، ووضع في ذلك مبدأه الشهير عن " الانتخاب الطبيعي " الذي فسّر به استمرار بعض الأنواع في الحياة ، واختفاء بعضها الآخر في معركتها الكبرى وصراعها من اجل الحياة.

وعلى الرغم من أّنه مبدأ بيولوجي في الأصل، إلاّ أّنه كان مفيداً للأنثروبولوجيين. وفي ذلك يقول الأستاذ **ألفريد كروبر**وهو من أكبر علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين : " إنّ هناك نوعاً من عدم التناسب بين الإسهام المحدود الذي أسهم به داروين في العلم، والذي ينحصر في وضع مبدأ الانتخاب الطبيعي وتجسيده، وبين كلّ ذلك التأثير الهائل الذي تركه تأسيس المبدأ البيولوجي على العلم الكلّي ". فقد دفع هذا المبدأ علماء القرن التاسع عشر، إلى البحث عن أصول الأشياء. وظهرت بذلك كتابات كثيرة تتناول أصل اللغة وأصل الحضارة، وأصل المجتمع والعائلة والدين، وما إلى ذلك بالطريقة نفسها التي تناول بها داروين مشكلة أصل الأنواع[117].

ولذلك ركّز العلماء التطّوريون، على موضوعات معّينة : كالدين والعائلة، والنسب، واعتبروا أنّ الحضارات البدائية المعاصرة، تمثّل شواهد دالّة على مراحل التطّور الاجتماعي التي مرّت بها الحضارة الحالية المتقّدمة .

[117] حامد أبو زيد، الطريق إلى المعرفة، كتاب العربي 46، مجلة العربي، الكويت، 2001، ص ص 23-24.

ولكن ثّمة صعوبات قابلتهم، في دراسة التطّور في العصور القديمة جدّاً، ولا سّيما عصور ما قبل التاريخ، فعمدوا إلى دراسة علم الآثار أو التخمين والافتراض من أجل إثبات نظريتهم [118].

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، استكمل الأنثروبولوجيون وضع العناصر الأساسّية لعلم الأنثروبوجيا الاجتماعية، عندما قام بعضهم بتصنيف المجتمعات البشرية على أسس أبنيتها الاجتماعية، وليس على أسس ثقافاتها فحسب. وهذا ما أّدى إلى تمّيز الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن الأنواع الأنثروبولوجية الأخرى، وأصبح موضوعها بالتالي، يختصّ بالعلاقات الاجتماعية وليس بالظواهر الثقافية .

واستناداً إلى ذلك، امتّد منهج دراسة الأنثروبولوجيا إلى الدراسات الميدانية. واعتبرت الدراسة التي قام بها العالم الانكيزي **هادون** على منطقة مضائق (تورليس) مع بعثة علمية، نقطة تحّول أساسية في تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية، حيث رسّخت أمرين أساسيين : أولهما : النظر إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، على أّنها علم يحتاج إلى تخصّص كامل .، وثانيهما:اعتماد الدراسة الميدانية منهجاً رئيسّياً في هذا العلم .

ومع أنّ **مورغان** و **بواز** سبقا **هادون** في دراسة بعض قبائل الهنود الحمر، وبعض قبائل الأسكيمو، فقد استطاع **هادون** أن يحّدد أساسيات منهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ويجذب

[118] C. Nigholson , Anthropology Development and Personality , 2 nd Ed , New York, Harper, 1968, p 7.

بعض العلماء إلى ميدان هذا العلم الجديد، بعدما تخلّوا عن اختصاصاتهم الأصلية وأصبحوا من أئمّة الأنثروبولوجيا الاجتماعية في القرن العشرين، من أمثال : العالم **ريفر** الذي كان متخصّصاً في علم النفس، والعالم **سليجمان** الذي كان متخصّصاً في علم الأمراض. بل أنّ **هادون** نفسه، تخلّى عن تخصّصه الأصلي في (الحيوانات البحرية) وتحوّل إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية [119].

وهكذا، مثّل القرن التاسع عشر نشأة الأنثربولوجيا الاجتماعية، وإن كانت صورتها غير ناضجة وتحتاج إلى الكثير من جهود العلماء ولفترة من الوقت ليست قصيرة، حيث بدأت عناصر صورتها تستكمل وتزدهر في نهاية هذا القرن والنصف الأول من القرن العشرين.

في القرن العشرين : وصلت الأنثروبولوجيا مع بداية القرن العشرين إلى مرحلة التخصّص بدراسة البنى الاجتماعية للمجتمعات، ولا سّيما المجتمعات القديمة، حيث ازدادت الدراسات الميدانية، وفي مقدّمتها الدراسة التي قام بها الأنكليزي **رادكيف براون** على سكان خليج البنغال، والتي اعتبرت المحاولة الأولى لفحص النظريات الاجتماعية بالعودة إلى مجتمع بدائي. وكذلك دراسة **مالينوفسكي** لسكان جزر (التروبوبرياند) لمدّة أربع سنوات، واستخدم فيها لغة أهالي هذه الجزر. فكان بذلك أوّل أنثروبولوجي يتمكّن من فهم حياة الناس وعلاقاتهم الاجتماعية، من خلال تتّبع عاداتهم وتقاليدهم، وتحليل مدلولاتها الاجتماعية .

[119] عبد الحميد لطفي ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1979، ص 96.

فخلال الربع الأوّل من هذا القرن، عكف الباحثون الأنثروبولوجيون على جمع الوثائق التي يحتاجون إليها من أجل إثبات ظاهرة الاقتباس بين الثقافات المختلفة. ويلاحظ أنّ العامل التاريخي، من وجهة نظر تاريخ الطريقة الأنثروبولوجية، احتلّ مكان الصدارة في دراسة المجتمعات، حتى في المحاولات المبذولة لإثبات ظاهرة الانتشار الثقافي، الناجمة عن الاحتكاك بين الشعوب . ويعود ذلك إلى أنّ هؤلاء الباحثين، كانوا يدركون جيّداً أهمّية البيانات التاريخّية في فهم العوامل الثقافية الدينامية[120].

أّما في الربع الثاني من القرن العشرين، فقد أصبحت للأنثروبولوجيا الاجتماعية فروع مستقلّة تدّرس في الجامعات الأوروبية، ولا سّيما في الجامعات البريطانية .. وانتشر تطبيق منهج الدراسة الميدانية نتيجة لتأثير علم **مالينوفسكي** الذي بدأ منذ عام 1924، بتدريب الأنثروبولوجيين على القيام بالدراسات الميدانية .

وفي عام 1937، أعاد **براون** تنظيم معهد الأنثروبولوجيا في جامعة أكسفورد، وطّور مناهجه. وبفضل جهود **مالينوسكي** و **براون** وتلامذتهما من ذوي الخبرة في الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية، أجريت دراسات متعّددة على مجتمعات صغيرة في أفريقيا (دراسة نظم القرابة والطقوس والسياسة)، وأحدث المعهد الدولي الأفريقي في جامعة أكسفورد، تصدر عنه مجلّة متخصّصة في علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

[120] رالف لينتون، الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة : عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1967، ص 259.

وتابعت الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراساتها المتقدّمة، في النصف الثاني من القرن العشرين، مماّ أدى إلى اتّساع هذه الدراسات وازدهارها، وبالتالي إلى التقارب بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية .. وتّم اعتماد تطبيق المنهج التجريبي بدلاً من المنهج المقارن، حيث يستند كلّ باحث أنثروبولوجي – في تطبيق المنهج التجريبي – إلى نتائج دراسة باحث آخر لمجتمع معّين، ويقوم بدوره بالتأكّد من صحّة هذه النتائج من خلال قيامه بدراسة مجتمعات أخرى. وبذلك، تصبح الفرضّيات المتفق عليها مبادئاً عامة في نهاية الأمر، أو معارف متداولة في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية .. وهذا ما عزّز من علم الأنثروبولوجيا في العصر الحديث .

أهداف الأنثروبولوجيا الاجتماعية

1- تحديد نماذج عالية للأبنية الاجتماعية : إنّ التوصّل إلى نوع من التصنيفات والنماذج للأبنية الاجتماعية، يعدّ أمراً صعباً بالنظر إلى عدم اتّفاق العلماء على هذه النماذج من جهة، ولعدم وجود مصطلحات عالمية لمفاهيم الأنثروبولوجيا الاجتماعية من جهة أخرى. هذا بالإضافة إلى المشكلة الأساسّية، التي تتمثّل في عدم وجود الدراسات الميدانية الشاملة للمجتمعات الإنسانية جميعها، على الرغم من محاولات الكثير من العلماء الوصول إلى ذلك الهدف .

فالإنسان وحده -من بين المخلوقات –يتمتّع بإمكانية تطوير سلوكه المكتسب ونقله بالتعلّم، وأنّ نظمه ومؤسّساته الاجتماعية، تتّصف بالتنوّع وبدرجة من التعقيد أكبر ممّا تتّصف به الأشكال الاجتماعية لأي نوع آخر من أنواع الحيوان .

ولذلك نجد أنّ المنطلق المنطقي لما يجرى من أبحاث حول المجتمع، هو دراسة أنظمة اجتماعية معّينة واعتبار كلّ منها وحدة متكاملة. وممّا يسهل المشكلة بعض الشيء، اعتبار الأنظمة كيانات متميّزة عن المجتمعات، إذ يمكّننا ذلك من تجاهل المدى الواسع للاختلافات الفردية في التعبير عن نماذج النظام، ومن التركيز على النماذج نفسها وعلاقاتها المتبادلة، بيد أنّ المشكلة تظلّ معقّدة بما فيه الكفاية، وأوّل مهمّة للباحث هي التحقّق من النماذج وطبيعتها.

إنّ الصورة التي يرسمها باحث النظام الاجتماعي كلّه، يتكّون من عناصر يجمعها واحدة واحدة، أي من النماذج الداخلة في تركيب النظام، ومن الملاحظات التي تتجّمع لديه عن تكّيفها وعلاقاتها المتبادلة، كما تتكشّف له في أثناء ممارسة الناس الفعلية لها. ولا يستطيع العضو العادي في أي مجتمع، أن يساعد الباحث في هذا العمل، إذ ما من أحد يدرك أنّ النماذج التي تنظّم التفاعلات الاجتماعية، تشكّل نظاماً إلاّ في حالة المجتمعات التي بلغت درجة عالية من التعقيد والتزّمت، كالمجتمعات في الصين وبلاد الإغريق في العصور القديمة، وأوروبا الحديثة[121].

[121] رالف لينتون، دراسة الإنسان، ترجمة : عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1964، ص ص 345-346.

ولّما كان الإنسان قادراً على التفاهم مع أمثاله بواسطة أشكال اللغة الرمزية والمفاهيم، فهو وحده الذي استطاع أن يوجد أنواعاً لا تحصى من المباني الاجتماعية الأساسية كبنيان الأسرة. وإذا نظرنا إلى حياة الجماعة في أي نوع من أنواع ما دون الإنسان من الكائنات الحيوانية، وجدنا أنّ مبانيها الاجتماعية أكثر رتابة من المباني الإنسانية، وبالتالي يمكن توقّعها لأنّ كل جيل من أجيالها يتعلّم السلوك المشترك بين معاصريه جميعهم، بينما يبني الإنسان على تجارب كلّ من سبقه[122].

وقد أنفق العالم **رادكليف براون** ثلاثين عاماً في الدراسة، للوصول إلى بعض النماذج العامة للأبنية الاجتماعية. وبفضل جهوده وجهود علماء آخرين، أصبح هناك اتفاق شبه عام على بعض النماذج الأساسية للبناء الاجتماعي، مثال) :العشيرة – القبيلة – الدولة – الأّمة – المجتمع) .

واستطاع هؤلاء العلماء تحديد الأشكال الأسرية الرئيسة، في المجتمعات الإنسانية. ويعد ذلك خطوة هامة نحو الوصول إلى القوانين الاجتماعية، التي يترتّب عليها ذلك التنّوع الملحوظ في الأبنية الاجتماعية المختلفة، وما أطلق عليه اصطلاحاً : (الدراسات المورفولوجية).

2- تحديد مظاهر التداخل والترابط بين النظم الاجتماعية : تبدو أهمّية استخدام المنهج الكلّي / المتكامل في الدراسات الأنثروبولوجية، في تحقيق ذلك الهدف الذي يتمثّل في تحديد

[122] ميليفل هرسكوفيتز، أسس الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة : رباح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق، 1974، ص 32.

التأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية، التي تدخل في نطاق البناء الاجتماعي الواحد. ويهتّم العلماء اليوم، بهذا الهدف، إذ لا يوافقون على اقتصار الدراسة الأنثروبولوجية على الجانب الوصفي فحسب، وإنما لا بدّ من التحليل للكشف عن الوظائف الاجتماعية للنظم الاجتماعية، عن طريق تحديد التأثير المتبادل فيما بينها.

وقد عرضت أمثلة كثيرة عن هذا الموضوع، حيث يطلق العالم **براون** على الدراسة التي ترمي إلى تحقيق ذلك الهدف اصطلاحاً : (الدراسة الفيزيولوجية (تمييزاً لها عن الدراسات الخاصة بالهدف السابق (الدراسات المورفولوجية).

إنّ مشكلة حقيقة الأنظمة الاجتماعية، هي مشكلة فلسفية أكثر منها مشكلة عملية. والمهّم في الأمر هو أنّ مركّب النماذج الاجتماعية التي تتكّيف بعضها مع بعض تكّيفاً متبادلاً _ وهو ما اصطلح على تسميته بالنظام الاجتماعي – يتطّور ويعمل بارتباط مستمر مع سائر عناصر الثقافة، وأنّ النماذج يجب أن تتكّيف مع هذا النسق تماماً كما تتكّيف بعضها مع بعض. أمّا المجموع الكلّي للثقافة، فيجب أن يتكّيف بدوره أيضاً، مع البيئة الطبيعية للمجتمع، لأنّ الإنسان قد يطّور وسائل كثيرة ومتنّوعة للسيطرة على البيئة واستغلالها، ولكّنه لا يستطيع أبداً أن يتحّرر من أثرها .

ولذلك، يمكن القول : إنّ كل نظام اجتماعي، هو جزء من وحدة متناسقة متكاملة، أوسع جدّاً في مداها من النظام نفسه، أمّا العناصر التي تتكّون منها هذه الوحدة، فهي متشابكة

ومتداخلة. ولا يمكن فهم النظام الاجتماعي، إلاّ إذا درس في ضوء علاقته بالوحدة المتناسقة الكبيرة، التي تضّم عناصر أخرى تظلّ تفرض باستمرار حدوداً على نموّه وعمله[123].

وبذلك يكون على الباحث – من وجهة النظر الوظيفية -أن يأخذ في الحسبان عاملين أساسيين يلعبان دوراً تبادلياً وفاعلاً في هذا النظام الاجتماعي أو ذاك، وهما: النموذج الذي يعرفه الأفراد ويؤثّر في سلوكاتهم من جهة، والثقافة التي ينشأ عليه هؤلاء الأفراد، والتي تعنى بتلبية الحاجات الكلّية للمجتمع من جهة أخرى، وذلك لأنّ الأنظمة الاجتماعية لا يمكن أن تؤّدي وظيفتها، إلاّ كجزء من المجموع الكلّي للثقافة .

3- تحديد عمليات التغيير الاجتماعي : تهدف الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، إلى تحديد خصائص التغيير الاجتماعي وعملياته، والتي تحدث في الأبنية الاجتماعية، سواء ذات المعدّل السريع في التغيير أو المعدّل المتوسّط أو المعدّل البطيء .

وقد لا حظ **براون** أنّ الدراسات الخاصة بذلك الهدف، اهتّمت بدراسة أثر الحروب الاستعمارية على النظام القبائلي في أفريقيا وآسيا. ولكنّ التغيير الاجتماعي عملية معقّدة، متعّددة الجوانب ومختلفة العوامل. ولذلك، فهي أعمق في دراستها من حيث الجمع بين عناصر

[123] رالف لينتون، دراسة الإنسان، ترجمة : عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1964، ص 348.

حضارتين مختلفتين. فعملية التغيير أو التطّور، تستلزم ظهور أشكال جديدة من الأنماط والأبنية الاجتماعية، كما تستلزم أيضاً، الانتقال من الأشكال البسيطة إلى الأشكال المركّبة[124].

فلكلّ مجتمع طريقته الخاصة في الحياة، والتي يطلق عليها العلماء الأنثروبولوجيون مصطلح " الثقافة ". ويعتبر مفهوم الثقافة من أهّم الأدوات التي يتعامل معها الباحث الأنثروبولوجي. وكما هي الحال في الأبحاث العلمية الأخرى، تنحصر الخطوة الأولى في جمع الحقائق عن الأنماط الثقافية المختلفة، ويتطلّب هذا من العالم الأثنولوجي، القيام بأبحاث ميدانية في أماكن نائية، وإلى العمل في أنوع مختلفة من المجتمعات.

وبما أنّ الكائنات البشرية تعيش في تجّمعات (مجتمعات) وتطّور طرقها الخاصة في الحياة بما يتلاءم مع أوضاعها الخاصة والعامة، فإنّ للثقافة هنا دوراً كبيراً في عمليات التغيير الاجتماعي، الفكري والسلوكي .

ومن هنا يتعّين على الدراسات الأنثروبولوجية أن تحّدد عمليات التغيير الاجتماعي، بطريقة الكشف عن الأنماط والأبنية الاجتماعية الجديدة، وكذلك تحديد كيفّية تطّور الظواهر الاجتماعية البسيطة، إلى ظواهر اجتماعية مركّبة.. وهذا يتطلّب الدراسات الميدانية المركّزة، والمعّمقة.

[124] عاطف وصفي، مرجع سبق ذكره، ص 174.

المحور السادس: الاتجاهات و النظريات الأساسية في الأنثروبولوجيا :

منذ أن استقرت الأنثروبولوجيا علما قائما بذاته برزت العديد من الاتجاهات تناول الأنثروبولوجيون انطلاقا منها مختلف الموضوعات الأنثروبولوجية و لقد كانت نظرية التطور في مجال البيولوجيا و التي أسس دعائهما **تشارلز داروين** ملهما حقيقيا للأنثروبولوجيين الأوائل الذين تناولوا الثقافة و المجتمع بنظرة تطورية ، لكن أسس التفسير تعددت باتساع الدراسات في الحقل الأنثروبولوجي و بروز اتجاهات و نظريات اجتماعية لها القدرة على التحليل و التفسير، ولعل أهم اتجاهات و نظريات دراسة الأنثروبولوجيا ما يلي:

أولا: الاتجاه التطوري:

هناك من يرجع الجذور الأولى للمدخل التطوري في التحليل الانثروبولوجي إلى ما قبل داروين، ويقدر ذلك زمنيا بـ 2500 سنة، وذلك بالرجوع غلى العهد اليوناني، حيث أن أرسطو (384-332 ق م) كان يرى أن الحياة الإنسانية تطورت عبر مراحل، بحيث أن الأشكال الجديدة منها قد ظهرت بعد الأشكال القديمة، ثم جاء بعد ذلك المفسرون الأوائل للتوراة بعيون أرسطية وقالوا بإمكانية انبثاق خلائق جديدة من الخلائق القديمة التي خلقها الله، ونفس الشيء بالنسبة لرجال الدين المسيحي؛ الذين كانوا أيضا متأثرين بأفكار أرسطو الانثروبولوجية، وقالوا أن أشكال الحياة الجديدة هي تطور عن أشكالها القديمة[125].

لكن الفترة الذهبية لازدهار المدخل التطوري في التحليل الأنثروبولوجي هي القرن التاسع عشر، حيث ظهر عدد من علماء الانثروبولوجيا، وقاموا بدراسات رائدة كانت بمثابة الأسس

[125] عامر مصباح، مرجع سبق ذكره، ص 135.

الأولى لعلم الانثروبولوجيا وليس فقط للمدخل التطوري، ومن بين هؤلاء نجد داروين (1809-1883)، الذي كان متخصصا في الطب ثم اتجه نحو البحث الانثروبولوجي من خلال الدراسة التي قام بها حول الأنواع البشرية، ونشرها في كتاب بعنوان "أصل الأنواع" سنة 1859، وكان مضمون تحليل داروين يتمحور حول فكرة أن الخلائق بما فيها الإنسان قد تطورت من مستويات دنيا إلى مستويات عليا متخصصة، بمعنى أن أصول الخلائق ترجع إلى مصادر واحدة ثم تفرعت عنها هذه الفروع من الخلائق التي نشاهدها الآن[126].

أما بالنسبة لاوغست كونت (1798-1857) فقد جاء الحديث عن التطور في كتابه "محاضرات في الفلسفة الوضعية" عندما تحدث عن قانون الحالات الثلاث، فهو يرى أن التفكير الإنساني قد تطور عبر ثلاث مراحل أساسية وهي المرحلة اللاهوتية، ثم المرحلة الميتافيزيقة، ثم المرحلة الوضعية، وقد شكلت هذه الأفكار الأساس النظري لتطور الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية عموما في فرنسا في القرن التاسع عشر[127].

كان هذا الاتجاه قد احتضن نشأة الأنثروبولوجيا حين ظهورها كعلم، فكان الأنثربولوجيون يحاولون فهم كيفية نشأة و تطور المجتمعات و ثقافتها فحسب التطوريين يمثل تاريخ الإنسانية و تاريخ الثقافة بما يضم من عادات و تقاليد و تنظيمات خطا متصاعدا كما أن البشرية تمر بمراحل خلال تطورها التاريخي فتتدرج من الأشكال البسيطة إلى الأشكال المعقدة إلى الأكثر

[126] المرجع السابق نفسه، ص ص 135-136.

[127] المرجع السابق نفسه، ص 136.

تعقيدا، و هذه السيرورة ملازمة لكل المجتمعات و الثقافات نتيجة الوحدة النفسية المشتركة بين البشر.

يرى **لويس مورغان**(1818-1881) أن المجتمعات تمر بمراحل تطورية حيث كل مرحلة تشكل نمطا معينا طبقا لمراحل التطور التي تتمظهر في طبيعة العلاقات الاجتماعية و طبيعة النظم التي تميزها ، فكل المجتمعات عنده تخضع في تطورها لقانون واحد طالما أن تاريخ الجنس البشري و أصل الإنسانية واحد ، و عليه يصل مورغان إلى أن البشرية تطورت عبر ثلاث مراحل أساسية:

1- **مرحلة التوحش (الهمجية) :** و يقسمها إلى ثلاثة مراحل هي مرحلة التوحش الدنيا و مرحلة التوحش الوسطى و مرحلة التوحش العليا و يوضح **مورغان** أن هناك ارتقاء ثقافي خلال الانتقال عبر كل مرحلة في تقنيات العيش و النظم الاجتماعية.

2- **مرحلة البربرية**: و تنقسم بدورها إلى ثلاث مراحل دنيا و وسطى و عليا.

3- **مرحلة المدنية (الحضارة)**: وتتميز باختراع الكتابة و الحروف الهجائية و هي مازالت ممتدة إلى اليوم.

كما يعد **إدوارد تايلور** (1832-1917) واحدا من رواد هذا الاتجاه حيث اعتبر أن الثقافة عنصر مساعد لفهم التاريخ الإنساني طالما أنها ظاهرة تاريخية تميز الإنسان دون غيره و يكتسبها بالتعلم من المحيط الذي يعيش فيه، و بهذا المعنى تكون الثقافة هي حصيلة ما يكتسبه الفرد في المجتمع، و من هذا المنطلق يرى **تايلور** أن " دراسة الثقافة هو دراسة تاريخ

تطور الفرد في المجتمع باعتبارها العملية التاريخية العقلية لتطور عادات الإنسان و تقاليده من حالتها غير المعقدة إلى حالتها المعقدة فالأكثر تعقيدا " ، كما يعتقد **تايلور** بتطور فكر الإنسان في مجال الاعتقاد ، ففي البدء بدأ الإنسان بمحاولة التفكير في القرين الملازم لجسم الإنسان و هو الروح ثم تدرج إلى وجود أرواح تسكن الطبيعة مثل الروح التكي تسكن جسد الانسان ، فقام بتأليه هذه الأرواح لكنه اهتدى أخيرا إلى فكرة الإله الواحد كمرحلة أخيرة تعبر عن منتهى تفكير الإنسان و يبدو أن مراحل التطور لم تكن حتمية ملزمة بالنسبة لتايلور كما كان الحال عند **لويس مورغان** في عده لمراحل التطور البشري، و رغم تصنيف **تايلور** ضمن الاتجاه التطوري إلا أن آراءه لم تخل من القول بانتشار الثقافة فهي حسبه" مثل النباتات تتصف بالانتشار أكثر من كونها تتطور ، فالناس أخذوا من جيرانهم أكثر مما اخترعوا و اكتشفوا بأنفسهم. "

كما كانت إسهامات **جيمس فرايزر** (1854-1941) في مجال التطور بتطرقه إلى تطور المجتمعات من خلال ثلاث محطات هي : السحر و الدين و العلم ....إلخ.

ثانيا: الاتجاه التاريخي:

ويتزعمه العالم الألماني **فرانز بواز** (1858-1942) والذي كان رائدا لهذا الاتجاه في أمريكا وبفضله تم الانتقال من النظرة الخطية التطورية للتاريخ كما كانت عليه نظريات التطوريين إلى دراسة ثقافات محددة كثقافة العشائر و القبائل مع التأكيد على ضرورة دراسة هذه الثقافات في إطار منطقتها الإقليمية الثقافية، و الهدف من ذلك هو معرفة أصول و تواريخ

الثقافات و تحديد خصائصها و لكن الهدف الأسمى يتجلى أخيرا في المقارنة بين هذه التواريخ و التي تميز هذه الثقافات من أجل الوصول إلى القوانين العامة التي تحكم نموها و تطورها.

ثالثا: الاتجاه الانتشاري:

هناك من يعرف الانتشار كمدخل في التحليل الانثروبولوجي بأنه: "السمات الثقافية تنتشر من جماعة لأخرى عن طريق الاتصال التاريخي، أما عملية التكامل فيقصد بها تعديل أو تكيف العناصر الثقافية المستعارة وتثبيتها في الثقافة المحلية وفي المحتوى الاجتماعي للبيئة[128].

إذ يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الاتصال بين الجماعات و الشعوب أدى إلى انتشار بعض السمات الثقافية، فعملية الانتشار الثقافي تنطلق من مركز ثقافي إلى باقي المناطق كما أن الانتشار يتم أيضا من خلال انتقال السمات الثقافية من جماعة سابقة إلى جماعة لاحقة، و تعتبر فكرة " المنطقة الثقافية " التي طورها **وسلر** (تلميذ **بواز**) أداة هامة في دراسة الثقافة وجوهرها تقسيم و تصنيف ثقافات العالم إلى مجموعات ثقافية بناء على تشابه العناصر الثقافية التي تكونها، و المنطقة الثقافية إقليم يضم مجتمعات إنسانية متشابهة الثقافة، و من أجل تحديد و تمييز منطقة عن أخرى يتم تتبع مدى انتشار العناصر الثقافية المميزة لتلك الثقافة (طرق و أدوات الصيد ، طهي الطعام .....) مثلما فعل الأمريكي **سابير** الذي حاول تحديد مدى انتشار عناصر " رقصة الشمس " عند هنود السهول بأمريكا الشمالية ، و في أنجلترا برز من يقول

[128] محمد حسن غامري، مرجع سبق ذكره، ص 34.

بوجود مركز للثقافة تنطلق منه إلى باقي أنحاء العالم و خير مثال على هذا العلامة **إليوت سميت** الذي رأى بأن مصر القديمة هي مركز كل الثقافات الحالية حيث انتشرت العناصر الثقافية من مصر إلى باقي أنحاء العالم ، فقد كانت نظرة سميت هذه مؤسسة على تشابه الآثار المختلفة في العالم مع الآثار التي اكتشفها عالم الآثار " بتري" كنظم القرابة و فن التحنيط و عبادة الشمس ....إلخ.

ومن أهم رواد مدخل الانتشار في التحليل الانثروبولوجي نجد **باستيان** (1823-1905)، **راتزل** (1844-1904)، **هويندرج شورتر**، **اليوت سنيث** (1871-1931)، وتلميذه **وليم بيري**، **فرتيز دوبيتور** (1877-1934)، و **ولهم شميت** (1868-1959).

رابعا: الاتجاه التناسقي التكاملي:

و مفاده ضرورة النظر إلى الثقافة ككل متكامل يجمع بين الأفكار و المشاعر من جهة و السلوك الظاهر من جهة ثانية، و قد كان **سابير** من الممهدين لهذا الاتجاه من خلال نظرته للثقافة في صورة تفاعل الأفراد فيما بينهم؛ و ما ينتج عن ذلك من معان و مشاعر مشتركة لذلك، يعرف الثقافة بأنها كل متكامل من أنماط فكر و عواطف و أنماط عمل "، و تعد العالمة الأمريكية **روت بندكت** واحدة من أهم الممثلين لهذا الاتجاه، و يتجلى ذلك في قولها بأن الثقافة مثل الفرد لديها نمط متناسق من الفكر و العمل، كما أنه لفهم الثقافة لابد من الأخذ في الاعتبار الاتجاهات العقلية و الشعورية السائدة فيها و القيم و الأهداف المشتركة بين أفراد المجتمع الذي تتم فيه دراسة الثقافة، ففي دراستها لبعض القبائل الهندية في جنوب غرب أمريكا

الشمالية وجدت **بندكت** اختلافا بين القبائل فمنها التي تركز على المظهر الخارجي للسلوك و تهتم بالطقوس و احترام العادات و التقاليد أطلقت عليها اسم " ثقافات منبسطة " و منها التي تتميز بالعدائية و تعطي للدافع النفسي الداخلي أهمية أكبر من العوامل الخارجية و أطلقت عليها اسم " ثقافات منطوية " و الوصول إلى فهم ثقافة ما لابد أن يأخذ في الاعتبار السلوك الظاهري في صوره المتكررة و مختلف الاتجاهات العقلية الشعورية في تناسقها و تكاملها.

خامسا: الاتجاه البنائي الوظيفي:

هناك من يعرف البناء بأنه مجموعة العلاقات الاجتماعية المتباينة التي تتكامل وتتسق من خلال الأدوار الاجتماعية، وثمة أجزاء مرتبة ومنسقة تدخل في تشكيل الكل الاجتماعي، وتتحدد بالأشخاص والزمر والجماعات وما نتج عنها من علاقات، وفقا لأدوارها الاجتماعية التي يرسمها لها الكل وهو البناء الاجتماعي[129].

ويعرف **روبرت ميرتون** الوظيفة بأنها تتمثل في تلك النتائج أو الآثار التي يمكن ملاحظتها والتي تؤدي إلى تحقيق التكيف والتوافق في نسق معين[130].

يعد البناء و الوظيفة من المفاهيم المحورية في تحليل المجتمع و في الأنثروبولوجيا الاجتماعية يشير مفهوم البناء الاجتماعي إلى "مجموعة العناصر التي تقوم بينها علاقات تعبر عن كل العمليات القائمة بين هذه العناصر"، و قد كان لـ " **راد كليف براون**" الدور الأكبر في

[129] علي عبد الرزاق جلبي، الاتجاهات السياسية في نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص 190.

[130] السيد علي شتا، نظرية علم الاجتماع، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1993، ص 288.

بلورة هذا المفهوم، فهو يشير عنده إلى" نوع من الترتيب بين الأجزاء التي تدخل في تركيب الكل وذلك لأن ثمة علاقات وروابط معينة بين الأجزاء التي تؤلف الكل وتجعل منه بنية متماسكة ".

وتشير الأجزاء المشكلة للكل إلى مختلف النظم الاجتماعية كما تشير حسب **براون** إلى الأشخاص (أب – أخ ...) باعتبار علاقاتهم الاجتماعية وليس الأفراد باعتبارهم كائنات بيولوجية ، ويدرس البناء الاجتماعي مرتبطا بالوظيفة ، فالوظيفة هي " الدور الذي تؤديه الأجزاء (البناء الفرعي) داخل البناء الكلي للمجتمع. "

وفي إطار التحليل البنائي الوظيفي يميز **رادكليف براون** بين الأشخاص و الأفراد، فالفرد كائن بيولوجي يعيش داخل المجتمع له حاجاته البيولوجية الأساسية التي تبقيه على قيد الحياة، وله انفعالات ويخضع لمنبهات ويقوم باستجابات، وهذا هو موضوع دراسة علماء الفيزيزلوجيا والسيكولوجيا، أما الفرد الذي يقوم بأدوار اجتماعية وله مكانة ويؤثر في الحياة ويخلق الثقافة والرموز ويتحدث بلغة معينة تميزه عن الكائنات الحيوانية الأخرى، وتتراكم أفعاله ومواقفه وسلوكياته الاجتماعية لتشكل عبر الزمن أنساقا اجتماعية معينة وعادات وتقاليد، توجه السلوك فيما بعد، هو الشخص الذي يكون موضوع علم الأنثروبولوجيا[131].

وقد اهتم **مالينوفسكي** بالوظيفة التي تؤديها الثقافة فهي حسبه تعمل على إشباع حاجات الأفراد في جميع النواحي ، كما أن النظم الاجتماعية المختلفة تؤدي وظائف مختلفة كل حسب

[131] حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الانثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 2003، ص 26.

طبيعته كالنظام الاقتصادي الذي يؤدي وظيفة توفير الحاجات الغذائية والنظام الديني الذي يؤدي وظيفة الضبط الاجتماعي ...الخ ، وهذه الوظائف تؤدي مجتمعة إلى تحقيق الوظيفة العامة للبناء الكلي وهي المحافظة على بقائه واستمراره.

سادسا: الاتجاه البنيوي الأنثروبولوجي:

يعرف البناء بأنه: "مجموعة أنساق مترابطة، وكل من هذه الأنساق يتضمن عدة أنماط سلوكية، وكل من هذه الأنماط يحتوي على عدة قواعد اجتماعية تنظم تصرفات الفرد في مؤسسات وتنظيمات وجماعات اجتماعية[132].

ويتزعم هذا الاتجاه العالم الأنثروبولوجي الفرنسي **كلود ليفي ستروس** ، وتحيل البنيوية إلى وجود بنيات تتحكم في العلاقات والظواهر الاجتماعية ولئن كانت أعمال **ليفي ستروس** منصبة على المجتمع وظواهره (المجتمعات البسيطة وظواهرها كأنماط القرابة والأساطير ...) فإنه استمد مفهوم البنية من حقل اللغة ومن أعمال **فرديناند دي سوسير** التي تركز على اللغة كنسق نحوي شكلي يتكون من بنيات (كلمات وجمل) وهذا التناسق هو الذي يحدد المعنى ، يستعير **ليفي ستروس** من الألسنيين طريقتهم في دراسة اللغة ليطبقها على المجتمع فيقول في هذا السياق " إننا نريد أن نتعلم من الألسنيين سر نجاحهم ، ألا يسعنا نحن أيضا أن نطبق على هذا الحقل الذي تدور فيه أبحاثنا (القرابة – التنظيم الاجتماعي – الدين – الفلكلور - الفن ..) تلك المناهج الصارمة التي تبرهن الألسنية كل يوم على فعاليتها "، إذن حسب **ليفي**

[132] فهمي سليم الغزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق، عمان، 1992، ص 255.

ستروس هناك بنيات أساسية تتحكم في سيرورة المجتمع ، فإذا كانت مختلف النظم والأجزاء المجتمعية بالنسبة للأنثروبولوجيين هي البنيات الأساسية المتحكمة في المجتمع فإن هذه البنيات حسب **ليفي ستروس** تخفي خلفها البنيات الحقيقية المتحكمة في الواقع الاجتماعي ، لكن البنية الأساسية حسبه والتي تتخفى خلف هذه البنيات هي بنية العقل الإنساني كبنية نهائية لا شعورية ، وإذا كان الضمير الجمعي عند **دوركايم** واللاشعور عند **فرويد** هو المتحكم في الظواهر الاجتماعية والانسانية فإن بنية العقل وتركيبته هي المتحكمة في مختلف أنماط التفكير ونظم القرابة والدين وغيرها لدى **كلود ليفي ستروس.**

قائمة المراجع:

1. Anderson, John, Conjuring with Ibn Khaldon: from an Anthropological point of view, Leiden, 1984.
2. Boorstin, Daniel. J, The Discoveries A History Of Man's Search to Know his World and Himself .Vintage Books edition, 1985.
3. C. Nigholson , Anthropology Development and Personality , 2 nd Ed , New York, Harper, 1968.
4. Darnell, Regna and editor, Reading in the History of Anthropology, University of Illinois, 1978.
5. Edgar Morin : De la culturanalyse à la politique culturelle, Communications, V 14, Numéro 1, 1969 .
6. James P. Spradley, David W. McCurdy. : The Cultural Experience: Ethnography in Complex Society, Prospect Heights, Ill. : Waveland Press, 1988, c1972.
7. Leach, Edmund , Social Anthropology , Fontana- Paper backs, 1982.
8. Mauduit, J. A, Manuel d,Athngraphie , Payot , Paris, 1960.
9. Oswalt, Wendell , Other People , Other Customs , Holt Rinehart and Winston Inc, 1972.

10. إبراهيم ناصر، الأنثروبولوجيا الثقافية: علم الإنسان الثقافي، عمّان، الأردن، 1985.

11. أبو عبد الله ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار التراث، بيروت، 1968.

12. أحمد أبو زيد : محاضرات في الأنثروبولوجيا الثقافية، مرفت العشماوي وعثمان العشماوي : الأنثروبولوجيا الثقافية : المجال والموضوع، ضمن الأنثروبولوجيا : علم الإنسان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2009.

13. أحمد أبو زيد، محاضرات في الانثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1978.

14. أحمد الخشاب، دراسات أنثروبولوجية، دار المعارف، مصر، 1970.

15. أحمد زكي بدوي : معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1997.

16. إدوارد بريتشارد، الأنثربولوجيا الاجتماعية، ط 5، ترجمة : أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، 1975.

17. اسماعيل فاروق ،علم الإنسان الأنثروبولوجيا، مطبعة الجمهورية، الإسكندرية، 1994.

18. ب. ف سكينر، تكنولوجيا السلوك الإنساني، ترجمة: عبد القادر يوسف، عالم المعرفة، الكويت، 1980.

19. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1971.

20. حامد أبو زيد، الطريق إلى المعرفة، كتاب العربي 46، مجلة العربي، الكويت، 2001.

21. حسن شحاته سعفان : الأنثروبولوجيا _ علم الإنسان، مكتبة العرفان، بيروت، 1966.

22. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الانثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 2003.

23. حسين فهيم، قصّة الأنثروبولوجيا- فصول في تاريخ الإنسان، سلسلة عالم المعرفة 1986، الكويت.

24. رالف لينتون، الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة : عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1967.

25. رالف لينتون، دراسة الإنسان، ترجمة : عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.

26. سامية حسن الساعاتي، الثقافة والشخصية: بحث في علم الاجتماع الثقافي، دار النهضة العربية، بيروت، 1983.

27. سامية محمد جابر، علم الإنسان : مدخل إلى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، دار العلوم العربية، بيروت 1991.

28. السيد حافظ الأسود، الثقافة الإنسانية: طبيعتها خصائصها وأنماطها، ضمن علم الإنسان _ مدخل عام، دار القلم، دبي، 1995.

29. السيد علي شتا، نظرية علم الاجتماع، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1993.

30. السيد نبيل الحسني، الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية: دراسة إسلامية في علم الإناسة المعاصر، ط 1، العراق، 2009.

31. عاطف وصفي، الثقافة والشخصية، دار النهضة العربية، بيروت.

32. عامر مصباح، المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2010.

33. عبد الحميد لطفي ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1979.

34. عبد الرحمن ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، تحقيق :علي عبد الواحد وافي، القاهرة ، 1966.

35. علي عبد الرزاق جلبي، الاتجاهات السياسية في نظرية علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، 1999.

36. علي فهمي خشيم ، نصوص ليبّية، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا ، 1967.

37. علي لجباوي، الأنثروبولوجيا – علم الإناسة، جامعة دمشق ، 1997/1996.

38. عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004.

39. فاروق أحمد مصطفى و محمد عباس إبراهيم، الأنثروبولوجيا الثقافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007.

40. فريدريك بارث و آخرون، الأنثروبوبوجيا: حقل علمي واحد و أربعة مدارس، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادر و إيمان الوكيلي، المركز العربي للأبحاث و دراسات السياسات، قطر، ط 1، 2017.

41. فهمي سليم الغزوي وآخرون، المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق، عمان، 1992.

42. مجموعة مؤلفين، نظرية الثقافة، ترجمة :علي الصاوي، عالم المعرفة (223) ، الكويت، 1997.

43. محمد الجوهري : الأنثروبولوجيا: أسس نظرية وتطبيقات عملية، دار المعارف، القاهرة، 1980.

44. محمد الحوهري، الأنثروبولوجيا: أسس نظرية وتطبيقات عملية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1999.

45. محمد صقر خفاجة، هيرودت يتحدّث عن مصر، دار العلم، القاهرة، 1966.

46. محمد مؤنس، الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها، عالم المعرفة، عدد كانون الثاني، الكويت ، 1978.

47. مصطفى عمر حمادة :علم الإنسان : مدخل لدراسة المجتمع والثقافة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2007.

48. ميلفيل، ج، هرسكوفيتز : أسس الأنثروبولوجيا الثقافية، ترجمة :رباح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق، 1974.

49. هشام بن سنوسي، مطبوعة موجهة لطلبة السنة الثانية ليسانس، شعبة الدراسات الأدبية تخصص :الأدب العربي، مقياس :الأنثروبولوجيا الثقافية، كلية الآداب واللغات، جامعة جيجل، 2018/2017.

50. يعقوب يوسف الكندري، الثقافة و الصحة و المرض: رؤية جديدة في الأنثروبولوجيا المعاصرة، لجنة التأليف و التعريب و النشر، الشويخ.